ثم اتجهتْ مشاعِرُهم إلى تبْرِئةِ أنفسِهم علناً، بإعلان فضْلِ الأخِ الأصغر عنهم، وإلصاقِ التُّهَمِ بيوسفَ عليه السلام وأخيه.

إلى أنْ يصِلُوا إلى حالة الغَمِّ الشديد، على ما سنَرى في لاحق الآيات.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الأزمات تكشف ما في الصدور، وتفضح المستور، فما أخفت الوجوه من مشاعر دفينة. تطفو على السطح عند الضيق والإحصار، ثم يعقبها الندم بعد انقشاع عاصفة الغضب. والأولى أن تكون القلوب في الأصل ناصعة بيضاء نقية سمحة، حتى إذا ما جاءت ثورة الإنفعال، كان الظاهر كالباطن، وما وجد الشيطان في النفوس إلا النقاء انكفأ خاسئاً مكسوراً على عقبيه.

٢ - للدلالة على وجوب ضبط النفس حال الإستفزاز، حتى وإن كان الإستفزاز غير محق، لما يستتبع ذلك من الغضب، مع تصاعد حال التوتر بين الطرفين، مما يؤدي إلى مستويات عالية جداً من الحنق قد ينتج عنها ذيول لا تحمد عقباها، غير متوازية إطلاقاً مع مسبب التوتر الأساسي، لكنها فرصة الشيطان اللعين للإيقاع بين الناس بدفعهم إلى مراحل متقدمة في التناحر والتنافر والخلاف، وهذه هي سعادته الكبرى.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا
لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٠]

نتابع معاً أخي المؤمن، هذا الحوارَ الذي يَجْرِي بينَ يوسفَ عليه السلام، وإخوتِه، وقد بَلَغَ الموقفُ القِمَّة في التأزُّم: فالأَخُ الأصغر، تمَّ ضَبْطُهُ مُتَلَبِّساً بالسرقة، أمامَ أعينِ الجميع، والحكمُ كانَ قد صدَرَ مُسَبَّقاً مِنْ أفواهِ الإخوة، حين قضَوْا بالاسترقاق. ويوسفُ عليه السلام في طمأنينةٍ وسعادةٍ وحبور، إذ نَجَحَت خُطَّته كل النجاح، والإخوةُ في إحصارٍ ما بعدَه إحصار.

فلنتأمَّل الآيتين.

يقولُ الله تعالى في الآيةِ الأولى:

﴿قالوا يا أيها العزيزُ إن له أباً شيخاً كبيراً فخُذْ أحدنا مكانَه إنّا نراكَ من المحسنين﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ افتتاحِ كلامِهم بقولِهم: **﴿يا أيها العزيز﴾** ومع هذه العبارة، نحن نَسْتَشْعِرُ علاماتِ الخضوعِ والذُّلِّ والاستمالة. فنحن لم نَسمَعْهُمْ أبداً، في كلِّ حِواراتِهم السابقة معه، يَفْتتِحون كلامَهم بقولِهم: **﴿يا أيها العزيز﴾**.

ومعلومٌ أنك حين تُخاطِبُ أحداً بمُناداتِه باسْمِه. أو بلقَبه العالي، تكونُ قد مَهَّدْتَ للإعلان عن الرُّضوخِ إنْ كُنتَ سائلاً، وبالوُدِّ إنْ كُنتَ نِدًّا.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِهم: **﴿إنّ له أباً شيخاً كبيراً﴾**، وهنا أيضاً، نَلْحَظُ إشارةً جديدةً في الاسترحامِ والاستعطاف.

ولقد استعمَلُوا أشدّ العِباراتِ تأثيراً في النفوس، فقالوا بدايةً: **﴿إنّ له أباً﴾**.

ونحن نعرِفُ معنى إقصاءِ الابنِ عن أبيه، وما في ذلك منْ توليدٍ لمشاعرِ الحرمانِ والفُرْقَة.

لقد وَجَدُوا أنفسَهم في موقعِ مَنْ تَرْتَدُّ إليه سِهامُه، وإنْ عادَتْ إليهم بعدَ وقتٍ طويلٍ مِنْ رميها، والأغربُ من ذلك، أنهم في حضْرَةِ مَنْ أطْلَقُوا عليه السِهام وهم لا يَدْرُون: لقد أبعَدُوا يوسفَ عليه السلامُ عَنْ أبيهِ سابقاً، ولم تقُلْ لهُمْ أنفُسهم يومَها إنّ له أباً شيخاً كبيراً.

وها هُمْ اليومَ يطْلُبونَ مِنَ العزيزِ أنْ يشْعُر بما لم يشْعروا به، ويرأفَ بهم، وهم لم يرْأفُوا به.

فَسُبْحانَ الله العظيم، الذي يَرُدُّ كيدَ الكائدينَ في نحورهم، ولو بَعْدَ حين.

ثم إنهم قالوا تتِمّة: **﴿إنّ له أباً شيخاً﴾**.

وذلكَ لدفعِ حالةِ الاسترحامِ إلى مستوىً أعلى، إذ إن الأب الشيخ يَدْفَعُ إلى الرأفةِ والرحمة، أكْثَر منَ الأبِ الشاب.

ثم إنهم قالوا تثبيتاً: **﴿إنّ له أباً شيخاً كبيراً﴾**.

فاستَكْمَلُوا بذلك كلّ مشهدِ الاسترحام، عسى أن يستثيروا بذلكَ كُلّ مخازِن الرحمةِ والعَفوِ في قلبِ العزيز.

اللطيفة الثالثة: في ملاحظتنا أنَّ الإخوةَ لم يَذْكُروا أنّ أباهُمْ نبي في معْرِض وصْفِهم له، فلقد ذَكَرُوا أنه شيخ، وأنه كبير، وذلك لأمرينِ اثنين:

الأول: لظَنّهم أنّ العزيزَ لا يُدْركُ معْنَى هذا المقام.

والثاني: لاعتقادِهم أنّ الحاجَةِ إلى شَحْذِ أسبابِ الرحمةِ في قلبِ العزيز، تستوجِبُ أوصافَ الضَعْفِ لا أوصافَ القُوّة.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قولهم: **﴿فَخُذْ أحدَنا مكانَه﴾**.

وهذا قولٌ صعبٌ وجسيم، والوصولُ إليه يستوجِبُ قَطْعَ العديدِ من المراحلِ الصعبة، وسنُحاوِلُ تسَقُّطَها:

فالأخُ الأصغر، محكومٌ عليه بالاسترقاق، باليقينِ القَطْعِيّ.

والاسترقاقُ يَعْنِي أنْ يُصْبِحَ عبداً مملوكاً، يفْقِدُ معها حُرِّيَّته ويصبحُ أسيرَ الذُّلِ والهَوانِ دائماً وأبداً. لا يَمْلِكُ أنْ يتحرَّكَ بِملْء إرادتِه: إرادتُه مسلوبة، وعليه السَمْعُ والطّاعة، والعملُ الدائمُ الدؤوب، كيفما شاءَ سيِّدُه، وبالمقدارِ الذي يأمُرُه به.

وهذه حياةٌ صعبةٌ جداً على مَنْ كانَ حُراً سيِّداً.

وهم يُدْرِكُونَ تماماً هذه الحقيقة، إلا أنهم أمامَ حقيقةٍ أخرى أشدُّ مرارةً وصعوبة، ألا وهي حالُ أبيهم، حينَ يَعْرِفُ أنَّ ابنَه الأصغر، الذي بقيَ له مُواسِياً بعدَ فَقْدِ يوسفَ عليه السلام، وكان حريصاً على عدمِ إرسالِه معهم، وأخذَ عليهم العُهود والمواثيقَ بالحفاظِ عليه، واتخَذَ الاحتياطاتِ والإجراءاتِ الكاملة، لضمانِ سلامتِه. لن يعود إليه.

فاعتملتْ في أنفسِهم هذه المشاعر، وتصادَمَ شعورُ الرغبةِ بالحرية، وشعورُ إرضاءِ الأبِ بعودةِ ابنِه الأصغرِ إليه.

فكانَ أنْ غلَبَ لديهم الشعورُ بوجوبِ إرضاءِ الأب، والقَبول بالاسترقاق، ويُعتبرُ هذا سمواً وارتقاءً بالمشاعر لديهم. سينقلُهم مباشرةً إلى مكانةٍ أعلى وأرقى، أمامَ أنفُسِهم، وأمامَ يوسف عليه السلام، الذي سيتلقّى هذه الإشارة سعيداً مسْرُوراً، إلا أنه لنْ يُفْصح عنها إلا في حينها.

لقد بلغ الإخوةُ مرتبةً من الصفاءِ والنَّدَمِ، وتأنيبِ الضمير، والتكفيرِ عن أخطاءِ السابق، بأن ارتَضَوا أنْ يكونَ أحدُهم بديلاً في الرقِ عن الأخِ الأصغر، الذي لا يُحِبُّونَهُ أصلاً، مما يجعلُ التضحيةَ مُضاعَفة، كلُّ ذلك، من أجلِ إرضاء الأب، ومنعِ إيذائِه أكْثَر ممّا تأذّى.

اللطيفة الخامسة: في وقُوفنا عندَ قولِهم: **﴿إِنَّا نراكَ منَ المُحسنين﴾**.

وهذه إشارةٌ سادسةٌ في الآيةِ الواحدة، إلى حالِ الإخوةِ في الاستمالةِ واستدرارِ العَطْفِ والشفقة، حين يمتَدحون يوسفَ عليه السلامُ بقولِهم: إنّا نراكَ مِنَ المُحسنين.

وهذه الشهادةُ صحيحةٌ في حقِّ يوسفَ عليه السلام، ولقدْ قِيلت فيه سابقاً مِنْ نزيلي السجن، حين استفتياه في رُؤياهما، إذ نسمَعُهما يقولان في الآيةِ السادسةِ والثلاثين من هذه السورة: **﴿نَبِّئنا بتأويله إنا نراكَ من المحسنين﴾**.

وحين نسمعُ التوصيف مِنْ مصدرينِ مُختلفين، لم يلتقيا قبلاً أبداً، ويكونُ مُتَطابقاً، فذاكَ أبْلَغُ برهانٍ على صِدْقِه.

ثم يقولَ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوع تأمُّلنا.

﴿قالَ معاذَ الله أنْ نأْخُذَ إلا مَنْ وَجَدْنَا متاعَنا عنده إنّا إذاً لَظَالمون﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ ردّةِ فعلِ يوسفَ عليه السلام، على عَرْضِهم الشديدِ الغرابة، البالغِ شأواً عالياً في التضحية:

لقد رفَضَ رَفْضاً جازِماً قاطِعاً، لا يقْبَل المناقَشة، توكيداً على إقفالِ كلِّ أبوابِ المحاولةِ اللاحقةِ معه..

وكان هذا الرفضُ على مستوياتٍ ثلاثة:

المستوى الأول: في افتتاحِ عبارتِه بقولِه: **﴿معاذ الله﴾**.

المستوى الثاني: في إعطاءِ القرارِ النهائي **﴿معاذ الله أن نأْخُذ إلا مَنْ وجَدْنَا متاعَنَا عِنْدَه﴾**.

المستوى الثالث: بتأكيد العَدْل ودَفْعِ الظُلم: **﴿إنّا إذاً لظالمون﴾**.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا أنَّ يوسَف عليه السلام، استعاذَ بالله تعالى

وهذه ملاحظةٌ تسْتَوْجِبُ دهشة الإخوةِ الذين يظُنُّونَ أنّ العزيزَ على دينِ الملك، لكننا سبَقَ وأشَرْنا في موضعٍ آخرَ، أنّ الإخوةَ في هذه الأثناء، كانوا في حالٍ منَ الإغلاقِ، يحْجُبُ عنهمُ التساؤل.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ خُلاصة ما وَصَلَ إليه يوسُف عليه السلام، في هذه اللحظات، من نتائج في تحقيقِ خُطَّتِه:

فلقد تَمّتِ المراحلُ بالكامل، كما خَطَّط لها بدِقّة، وفي هذا سرورٌ وبهجة.

وحمَل الإخوةَ على اجتيازِ مرحلةِ الصراعِ النفسيِّ الشديد، والانتهاءِ إلى تغليبِ الإيثارِ على الأثَرَة.

فيكونُ بذلك، قد صَقَلَ نفوسَهم، ونَظّفَها مما عَلِقَ بها من نَوازع الحسَدِ والكُرْه، واستبدَلها بمشاعر التضحية..

فيمكِنُه بالتالي أنْ يبدأ مرحلةَ الاستعادةِ الكاملة، ولا يزالُ دُونَها بعضُ الوقت.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على سرعة انقلاب النفس الإنسانية، من حال الثبات والتمكن إلى حال الضعف والإهتزاز، خصوصاً إذا كانت قد اقترفت عملاً يخرج عن الإستقامة، وهذا هو حال الناس حين يفقدون سندهم المادي أو المعنوي، والعزة لا تكون إلا بالله تعالى فمن اعتز بالله تعالى فهو دائماً عزيز ولا يصيبه الهوان.

٢ - للدلالة على أن التوبة النصوح تطهر النفس وترفعها إلى إبعاد عالية من الصفاء والنقاء والإستعداد بالتضحية بأغلى ما تملك، إلا وهي الحرية، وهذه التوبة النصوح لا تحتاج غالباً إلى وقت وجهد وتفكر وتحليل، بل تحتاج إلى قرار رشيد سريع بالإنتقال من معسكر الشر إلى معسكر الخير، فتعمر في لحظات، بمشاعر الغبطة والسعادة والإيثار.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦١]

تُتابعُ معنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، وصْفَ تَبدُّلِ حال إخوةِ يوسفَ عليه السلام، بعدَ أنْ رفضَ يوسفُ عليه السلامُ عرْضَهم بأخْذِ أحدِهم بدلاً عنِ الأخِ الأصغر، وكنا قد عَلمْنا كيف أنّ يوسفَ عليه السلام. بكلماتٍ وجيزة، وضَعَ الحدّ الفاصِلَ أمامَ مُحاولاتِهِمُ الحثيثة، بإقناعِه بقبولِ البدل.

فلنتأمّلِ الآية الكريمةَ معاً.

يقولُ الله تعالى: **﴿فلمّا استيأسُوا منه خَلَصُوا نجِيًّا﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لُغوية، في وقوفِنا عندَ كلمةِ: **﴿استيأسُوا﴾** أي أصابَهُم اليأسُ مِنْ إمكانية إقناعِ يوسفَ عليه السلام. وهي تحملُ المعنى المرادَ نفْسَهُ من كلمةِ يئِسُوا، إلا أنّ وُرودَهَا في الآيةِ بصيغةِ استيأسوا، أبلغُ وأدقُّ معنى:

فزيادَةُ السينِ والتاء، جاءَتْ لإعطاءِ صيغةِ المُبَالغة، تماماً كما لحظْنا عندَ وقوفِنا في أولِ السورة، عند قول الله تعالى، على لسانِ امرأةِ العزيز الذي تربى يوسفُ في بيته في الآية الثانية والثلاثين: **﴿ولقد راوَدْتُه عَنْ نفسِه فاستعصم﴾** أي بالَغَ في العِصمةِ والتّمنُّع.

وهنا نفْهَمُ أنَّ إخوةَ يوسفَ عليه السلام، أيقَنُوا أنه لا مجالَ إطلاقاً لإقناعِ العزيزِ بالاستبدال.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى **﴿خَلَصُوا نجِيّاً﴾**.

فنَلْحَظُ جماليّةً لُغويةً نادِرَة، وذلك بإيراد صيغة المفردِ لشرح حالِ الجَمْع: فالذين خلَصُوا هم إخوةُ يوسفَ عليه السلام، أي اختَلَوْا بأنفسِهم، وابتَعَدُوا عنِ الجَمْعِ، وانفردُوا عَنْهُم.

وحين نقولُ **﴿نجِيّاً﴾** أي ذَهَب بنفسِه إلى النَّجْوَى.

ولسانُ حالِ الآية: أنَّ إخوةَ يوسفَ ابتَعَدُوا عنِ الجمعِ ليتَنَاجَوْا فيما بينهم.

إلا أنّ اللغة العربية تَنفَرِدُ ببلاغتِها حينَ تسْمَحُ في سموٍ لُغوي، أنْ تأتِيَ صفةُ الجمعِ مُفْرَدَة. والأمثلةُ في القرآنِ الكريمِ عديدة:

فنحن نقرأُ في الآيةِ الرابعةِ من سُورةِ التحريم: **﴿والملائكةُ بعدَ ذلك ظهير﴾** ونَسْمَعُ قولَ إبراهيمَ عليه السلام، في الآيةِ السابعةِ والسبعين من سورةِ الشعراء: **﴿فإنَّهُمْ عدوٌ لي إلا ربَّ العالمين﴾**.

اللطيفة الثالثة: في وقُوفنا عندَ الإعجازِ القرآني في الإيجاز. ففي هذه العبارةِ الوجيزة: **﴿فلمّا استيأسُوا منه خَلَصُوا نجِيًا﴾** نلْحَظُ الغِنَى الشديد في المعاني، ونَفْهَمُ:

أنَّ إخوةَ يوسفَ عليه السلام، أصابَهُم اليأسُ والقُنوتُ والإحباط. وشعَرُوا أنفسَهم على كثرتِهم، عاجزينَ عنْ إقناعِ العزيزِ بخُطورةِ الموقفِ الذي هُمْ فيه.

فَعَمَدُوا إلى الابتعادِ عنِ المجلس، وأظْهَرُوا الرغبة بإيجادِ جوٍ مؤاتٍ من الهدوءِ بعدَ تلكَ العاصِفةِ من الحقائقِ والمواقِفِ.

وأرادُوا منْ هذا الابتعادِ، عقْدَ جَلْسَةِ تشاوُرٍ وتباحُثٍ فيما بينهم، يتبادَلُون فيها الآراءَ والأفكار، عسى أنْ يَصِلُوا إلى حلٍّ لهذه المُعْضلة، التي تبْدُو بلا حَلّ.

وأنَّ يوسفَ عليه السلام، مَهَّدَ لَهُمْ سبيلَ عقْدِ مِثْلِ هذا المجلس وسنَلْحَظُ مُباشَرةً أنه ابتعدَ بسلاسَةٍ ويُسْرٍ عَنْ أحداثِ المشهدِ اللاحق، دونَ لفتِ انتباهِ القارىء أو المُسْتَمِع.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قال كبيرُهم ألم تعلَمُوا أنّ أباكم قد أخَذَ عليكُم موْثقاً مِنَ الله ومِنَ قبلُ ما فَرَّطْتُمْ في يوسُف﴾**.

في هذا الشطر مِنَ الآية، لطيفتانِ اثنتان:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا للأسلوبِ الذي اعتَمَدَهُ الأخُ الكبيرُ في تقييمه للوضع، فهو لم يَقْتَصِرْ على المشكلةِ الحالية، بل عادَ بِهم إلى الماضي البعيد، إذ أعادَ تذْكِيرَهم بتفريطِهم بيوسفَ عليه السلام، وكأنّه بذلك يُجْرِي تقييماً شامِلاً لسُلوكِهم منذ ذلكَ الوقت، وكأنّه بذلكَ يتَعَمَّدُ مُحاسَبةَ نفْسِه، ومراجعةَ ذاتِه، وإيقاظَ ضَميرِه، ويُحدِّدُ مُوجباتِ التصرُّفِ حِيالَ ما التَزَمُوهُ مَعَ أبيهم، إذ عاهَدُوهُ وأعْطَوْهُ الموثِقَ مِنَ الله تعالى، وهو يَعْلَمُ أنَّ الضميرَ وإنْ نامَ عِنْدَهُم رَدْحاً طَويلاً، فَهُوَ لم يَمُت.

اللطيفة الثانية: في لَحْظِنا لأدبِ الحوارِ الذي يتَحلَّى به الإخوة، وقد أخذُوهُ عَنْ يعقوبَ عليه السلام، فإذا ما تكَلَّمَ كبيرُهم، سَكَتَ الجميعُ وأنصتوا، وذلك تعليمٌ لنا وإرشاد.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ الأخِ الأكبر: **﴿فلن أبْرَحَ الأرضَ حتى يأذَنَ لي أبي أو يَحْكُمَ الله لي وهو خيرُ الحاكِمين﴾**.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في جَماليةِ الصُّورةِ التي تَحْمِلُها إلينا عِبارة: **﴿فَلَنْ أبْرَحَ الأرض﴾** وهي تُصَوِّرُ لنا ما اعتَزَمَ الأخُ الأكبرُ فِعْلَه. وقد حاكَمَ نفْسَه بنفسِه،

وأصْدَرَ على نفسِه الحُكْم بالإقامةِ الجبرية، كما نُسَمِّيها في أيامِنا الحالية، أو السَجْنِ الذّاتي. ونتصوّرُهُ بذلك وقد حَرَمَ نفسَه مِنْ أثمنِ وأغْلَى ما يَسْعَى الإنسانُ إلى تحقيقِهِ في سعيِه الدُّنْيَوِيّ، ألا وهِيَ الحرية، وهذا مِنْ أغربِ ما سَمِعْنا مِنْ أحكام. . وتشتدُّ بنا الغَرابة، حينَ نتذَكَّرُ أنه لم يَرْتَكِبْ ذَنْباً في الواقعةِ الحاليّة، إلا أنه تأديبُ النّفسِ وتأنيبُ الضمير، والرغبةُ بالتكفيرِ عنِ الإساءةِ إلى يوسفَ عليه السلام، في الماضي، وتطهير النفس ممّا عَلَقَ بها مِنْ شوائب.

اللطيفةُ الثانية: في وقوفِنا عندَ وُضوحِ الرُّؤيا التي أظْهَرها الأخُ الأكبر، عند هذه المرحلةِ مِنْ مَراحِلِ مِحْنَتِهِم: لقد أضْحَى يَرى الأُمورَ بشفافِيَّةٍ وجلاءٍ تام:

فهو يعلَمُ أنه أساءَ إلى أبيهِ في الماضي، حين انتَزعَ يوسفَ عليه السلامُ منه.

وهو يعلمُ أنه أساءَ إلى يوسفَ عليه السلام، حين أبعدَهُ وألقاهُ في الجُبّ.

وهو يعلمُ أنّ الإساءةَ إلى الأبِ ستكونُ أشدَّ حين يَعْلَمُ أنهم لنْ يعُودُوا بالأخِ الأصغر، وبالتالي فهذا نقضٌ للميثاق.

وحَدَّدَ أصحابَ الحق: أبوه، ويوسفُ الغائبُ عليه السلام.

والله تعالى هو وَلِيُّ يوسفَ عليه السلام، وهو وَلِيُّ المتقين.

فكان جوابُه: ﴿**لن أبْرَحَ الأرضَ حتى يأْذَنَ لي أبي**﴾ صاحبُ الحقِّ الأول، ﴿**أو يَحْكُم الله لي**﴾أي: وليُ صاحب الحقِ الثاني.

اللطيفة الثالثة: في قولِه: ﴿**وهو خيرُ الحاكمين**﴾.

وهو يُعَلِّمُنا بهذا كيفية التسليمِ المُطْلَقِ إلى الله تعالى، والتوكُّلِ عليه، حين يشتدُّ بنا المُصاب، وتعزُّ علينا الحلُول، ونفْقِدُ القُدرة على التصرف، فعندَ الله تعالى نجِدُ الملاذ، وهو وَلِيُّنا لا مَوْلَى لنا سواه. .

ولنا أنْ نتساءَلَ في نهايةِ تأمُّلِنا لهذه الآية: أيُّ الحلولِ أفضلُ للإخوة، وما لهم أنْ يفعلوا في مثلِ هذا الموقف؟

فلو تصَرَّفُوا جميعاً كما قَرَّرَ كبيرُهم، وأجْرَوْا على أنفسِهم الحكم ذاتَه الذي قَرَره كبيرُهم، بالإقامة الجبرية، لمَا عَادَ منهم أحدٌ إلى أبيهم، وفي هذا اشتداد الغَمّ عليهِ بِفَقْدِهم جميعاً.

ولو عادَ بعضُهم وبَقِيَ بعض، لحصَلَ الشتاتُ وضعُفَ الرأي والإرادة، وبَلَغَ الغَمُّ الأبَ مبْلَغاً عظيما.

يُضافُ إلى ذلك كُلِّه، أنَّ المُؤن لم تُحَصَّلْ بعد، وهُمْ إنْ عَادُوا على حالِهم تلك، فستكُونُ خسارَتُهم أعظمَ وأشدّ مِنَ الرحلةِ السابقة.

فكيفما كانتِ الخيارات، فأهونُها صَعْبٌ مُرُّ المَذَاق.

لكنَّ الله تعالى أعدّ لهم، عِنْدَ توبتهم، أفضلَ مِنْ كُلّ هذه الخيارات.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب احترام الأخ الأكبر عند اجتماع الأخوة، وهو من الأدب القرآني الذي نتعلمه، ففي حضور الأب، يكون هو كبير المجلس، فلا يتقدم عليه بالكلام، وعند غيابه، يكون الأخ الأكبر هو كبير المجلس وهو يتقدم بالكلام.

٢ - للدلالة على أن الضمير في الإنسان لا يموت، حتى وإن طال سباته، وكم كثيرة هي الأحداث التي تقع بين الناس، يأكل بعضهم حقوق البعض، ثم يدور الزمان دورته، فلئن وجد هذا الضمير النائم ما يوقظه ويعيده إلى الحياة، نراه متأثراً بما فعل، نادماً تائباً مستغفراً: السعيد هو من يستطيع أن يعيد إلى صاحب الحق حقه في الدنيا، أو يستسمحه أن أعسر عليه الرد والخائب من غيبه الموت قبل يقظة ضميره، فعليه أن يواجده يوماً صعباً جداً بين يدي الله عز وجل، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٢]

نتابعُ معاً أخي المؤمن، تطَوُّر الأحداثِ في قصةِ يوسفَ عليه السلام. وقد وصلتِ الأُمورُ إلى قمةِ التأزُّمِ في حقِ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، إذ اشتدَّ الطَوْقُ حَوْلهم، ولم يتمكّنُوا مِنْ تحقيقِ شيءٍ مما جاؤُوا لأجلِه، بل على العكس، تعقَّدتِ الأُمورُ إلى مستوىً لم يظُنُّوا أبداً أنها ستصِلُ إليه:

فلا هُمْ حَصَّلُوا المُؤَنَ التي أتَوْا مِنْ أجْلِها.

ولا هم أوْفَوْا بمَواثيقِهم وعُهودِهم لأبيهم.

ولم يستطيعوا حِفْظَ أخيهم الأصغر.

ولم يستطيعوا إقناع العزيزِ بأخذِ أحدهِم مكانَه.

وهذا ما دَفَعَ الأخ الأكبر إلى اتخاذِ قرارِ المكوثِ في أرضِ مِصْر، كبادرةِ إعلان فقْدِ الحيلة، وخُلُوِّ جعبته منَ الحُلول، فأوْكَلَ أمره إلى الله تعالى، أو إلى ما يقْضِي به يعقوبُ عليه السلام، وها هُوَ ذَا يُملي على الإخوةِ الباقين كيفية التصرُّف.

فلْنتأمَّل الآية الكريمة.

يقولُ الله تعالى على لسانِ الأخِ الأكبر: **﴿ارجِعُوا إلى أَبيكم فقولوا يا أَبانا إنّ ابْنَكَ سرق وما شَهِدْنَا إلا بما عَلِمْنَا وما كُنا للغيبِ حَافِظين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في وُقوفِنا عندَ كلمة: **﴿يا أبانا﴾**، وهي تكرارٌ لقولِه، **﴿ارجِعُوا إلى أَبيكم﴾**، ولو قال: ارجعُوا إلى أبيكم فقولوا له إنّ ابْنَكَ سرَقَ، لتمّ المعنى، ونحن نعرفُ أَنَّ مِيزةَ آياتِ القرآنِ الكريم هي الإعجازُ في الإيجاز، فلماذا تَكَرَّرَ ذِكْرُ الأبِ في العِبارةِ الواحدة؟.

الجواب هو أنّ أدَب الخطابِ مُقَدَّمٌ على الإيجاز، فالأَخُ الكبير، حتى حالَ غِيابِ الأَبِ يعقوبَ عليه السلام، يتأدّبُ في إرسالِ الخطابِ إليه، وهو يُعَلّمُنا بذلك كيفيةَ التصرُّفِ معَ الآباء، سواءٌ كانوا حَاضِرين أم غائبين.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لدقةِ العبارةِ في قوله: **﴿إنّ ابنَكَ سرق﴾** ومعلومٌ أنّ هذا الابنَ المقصود، هو أحدُ أبناء يعقوبَ عليه السلام، وهو أحدُ الإخوة، فإذا بهم يُفرِدُونَه وكأنهم يقولون: إنّ ابنَكَ الذي ميَّزْتَهُ عَنّا، فصَارَ يُشارُ إليه بالابن، قد سرَقَ.

والهدفُ من هذه العبارة، ذو دِلالةٍ عالية:

فلقد أرادَ الأخُ الكبير جَعْلَ محورِ الخطابِ - جُرمِ السرِقة - سبب عدمِ عودةِ الأخ الأصغر.

وهو لم يَقُلْ: قُولوا يا أبانا إنَّ أخانا الأصغر لم يَعُد معَنا. بل لم يَذْكُرْ على الإطلاق عدمَ العودة.

وأحالَ على يعقوبَ عليه السلام، استنتاجَ عدمِ العودةِ التِلْقائيِّ، بسبب جُرْمِ السرقةِ الذي بَادَرُوا بِذِكْرِه، ولسانُ حالهم يقول: إنَّ ابْنَكَ سرَقَ، وبطبيعةِ الحال هو لم يَعُدْ معَنا.

اللطيفة الثالثة: في ما نَلْحَظُه مِنَ تخفيفٍ لحدةِ الإعلامِ بقولِهم: **﴿وما شهِدْنا إلا بما عَلِمْنا﴾**.

فبعد أنْ أوْصَلُوا الخبر الصَاعِقَ بحصُولِ السرقة منْ قِبل الابن الأصغر.

سارَعُوا إلى النّأي بأنفُسِهم عَنْ هذا الحَدَث، وأعلنُوا أَنهم ليسوا في هذه المسألة إلا مشاهِدِين نَاقِلين، لا يَدَ لهُم فيها إطلاقاً.

وإنَّ هذا الذي يقولون، لا يتجاوَزُ ظاهِرَ الأُمور، مما يترُكُ البابَ مفتوحاً أمامَ وجودِ أملٍ بعدمِ إقدام الأخِ الأصغرِ على السرقةِ في نظَرِ أبيهم.

وهذا الأُسلوبُ التخفيفيُّ مندوبٌ في نَقْلِ الأخبارِ والإعلامِ بينَ الناس. وأصحابُ الحِسِّ المُرْهَف، والذوقِ السليم، يعرفون كيفَ يتعاملون به.

ولقد كانَ الأخُ الكبيرُ على هذا المستوى مِنَ الفَهمِ والوعي، فحينَ برَّأَ نفْسَهُ وإخوته مِنْ مسْألةِ عدم عودةِ الأخ الأصغر، بذِكْرِ ما حَبَسَهُ عنِ المجيء. سارَعَ إلى التعقيبِ بأَنَّهُمْ حَكَمُوا على ظاهر الأُمور، لعدمِ معْرِفَتِهم بكوامنها، وتَركُوا ليعقوبَ عليه السلامُ تقديرَ صحةِ المعلومةِ المنقولة..

اللطيفة الرابعة: لُغوية، في وقوفِنا عِنْدَ عبارة: **﴿وما كُنّا للغيبِ حافظين﴾**.

وأصلُها: وما كُنَّا حافِظِينَ الغيب.

فَدَخَلتِ اللامُ على الغيبِ للتقوية، فأصبَحَتْ. وما كُنّا حَافِظِينَ للغيب.. ثم حَصَلَ تقديمٌ وتأخيرٌ فأصبَحَتْ: وما كُنَّا لِلغيبِ حافظين. وهذه أجْمَلُ وأبْهى.

اللطيفة الخامسة: في تأمُلِنا لغنى المعنى الذي تسُوقُه عِبارة: **﴿وما كُنّا للغيبِ حافِظِين﴾**.

فلقد ترَكَ الإخوةُ هذه العِبارَة مُعَلَّقةً ولم يَنْسبُوها إلى حَدَثٍ مُعيَّن. والحقيقةُ أنهم يقصِدُونَ كُلَّ الأحداث التي حصَلَتْ معَهم، وهم يُقِرُّونَ بالواقع، ويَدْهَشون مِنه:

وَلِسانُ حالِهِم يقول:

لم نَكُنْ نَعرِفُ أنه سارِقٌ بالفِطْرة.

ولم نَكُنْ نعْرِفُ أنه سيسرِقُ صُواعَ الملِك.

ولم نَكُنْ نعْرِفُ حين أعطيناكَ الميثاق، أنه سَيَسْرِق.

ولم نَكُنْ نعرِفُ أنَّ الأُمور ستسِيرُ على هذا المِنوال، حين أعطَيْنَا حُكْمَ الاسترقاقِ على مَنْ يُوجَد الصُّوَاعُ في رَحْلِه.

ولم نَكُنْ نعْرِفُ أنَّ الأُمورَ ستُؤدِّي إلى عدمِ مجيءَ الأخِ الأصغرِ معَنا، فتُصَابُ بِهِ كما أُصِبتَ بيوسفَ عليه السلام.

كُلُّ هذا في حقِّهم، وصحيحٌ أنهم لا يعرفونَ الحقيقة، وستَنْجَلي لهُم لاحقاً.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ الأخِ الأكبر:

﴿واسأل القريةَ التي كُنّا فيها والعير التي أَقْبَلْنَا فيها وإنّا لصادقُونَ..﴾

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِه: **﴿واسأل القريةَ التي كُنَّا فيها..﴾** وفي هذه العبارة، إضمارٌ ومَجاز.

والمقصودُ بقولِه: وإذا أردْتَ التأكُّدَ مِنْ صِدْقِنا، فاسْأل أهلَ مِصْرَ حيثُ كُنّا، فَهُمْ شَهِدُوا حادِثَة السّرِقة، وهم يُؤَيِّدُون أقوالَنا بشهادَتِهم..

فَحَذَفُوا المسؤولَ عَنه، لحصولِ العِلْم بِهِ، وأعْمَلُوا المكانَ مجازاً، فارتَقَت العبارةُ بجماليةٍ لُغويةٍ لافِتة.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِه: ﴿**والعير التي أقبَلْنا فيها**﴾.

أمّا هنا، فلا إضمارَ ولا مَجاز، ولكنْ إحالةٌ على موقعِ النُبوَّة.

وتفسيرُه:

يَقْبَلُ المنطِقُ أنْ يستَدِلَّ الإخوةُ بأهلِ مصر، لتثبيت صحةِ أقوالِهم. وإنْ تكُنْ هذه الإحالةُ افتراضِيَّة، لصعوبةِ تحقيقِها في حقِّ يعقوبَ عليه السلام. وهو على هذا البُعْدِ الشاسع عنْ مِصر، إلا أنها قابلةٌ للتحقيق.

إلا أنَّ العيرَ لا يُمْكِنُ سُؤالُها في واقِعِنا البشرِيّ، ولقد يُقال: قد يكونُ معَ العِير رجالٌ غيرَ إخوةِ يوسف. وإنما قَصَدَ الإخوةُ هؤلاءِ الرجال، فيقعُ مجازٌ وإضمارٌ كما الحالُ معَ القرية.

إلا أنَّ تتِمّة الآية، والآيةَ اللاحقة، تنفي هذا الاحتمال، لأنّ سؤالَ الرجالِ سهلٌ وفي مُتناوَل اليد، حالَ وُجودِهم.

إلا أنّ قولَ يعقوبَ عليه السلامُ في الآيةِ اللاحقة: ﴿**بل سَوَّلَتْ لكُمْ أنفسكم أمراً**﴾، يُشِيرُ إلى عدمِ حصولِ التصديق، لانعدامِ وجودِ الشهودِ حقيقةً، فسَقَطَ احتمالُ وُجودِهم.

وبالتالي، فالمقصودُ بقولِهم: ﴿**والعير التي أقْبَلْنَا فيها**﴾:

أنه يا أبانا، وبحثاً مِنّا عنْ دليلٍ حسيٍ يُؤازِرُ قَوْلَنا ويُثبته، بإمكانِكَ بما فضَّلَكَ الله تعالى، بفضلِ النبوة، أنْ تسألَ الله تعالى، أنْ يَخرِقَ لك العادة، فيصِلَكَ عِلْمٌ من هذه العيرِ التي شَهِدَتْ واقعةَ السّرقة، على صِدقِ حديثِنا.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ قولِهم: ﴿**وإنّا لَصَادِقُون**﴾.

وفي هذا تاكيدٌ على صِحةِ ما جاؤوا به مِنْ أخبار، لحاجَتِهِمُ القُصْوَى إلى تصديقِ الأبِ لمقولتِهم، ولعِلْمِهِم بضَعْفِ أدِلّتِهم، وهذا ما أشَرْنَا إليه آنفاً..

اللطيفة الرابعة: في لَحْظِنا لهذا الانتقالِ المُذْهِش، غيرِ المُعْلَنِ عنه، إلى مجلسِ الأبِ في هذه اللحظات، وقد انتقلتِ الآيةُ بالمشهدِ مِنْ مصرَ إلى مجلسِ الأب، دونَ انتباهٍ منّا، فإذا بنا نُتابعُ حديث الإخوة، وهم معَ أبيهم دونَ أنْ تُعْلِمَنا كلماتُ الآياتِ بهذا الانتقال، بل سنَكْتشِفُهُ نحنُ حينَ نسْمَعُ بَدْءَ الحوارِ معَ يعقوبَ عليه السلامُ مباشرةً، في الآيةِ التالية.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب تعليق الإخبار عن أمرٍ ما على صحة الرؤية وما وصل إلينا بموجب ما نملك من حواس وهذا هو التصرف الأنسب والأحوط، لعدم يقيننا بأن ما نخبر به هو عين الحقيقة، ولا حاجة بنا إلى التشبث بالحكم الجازم على صحة ما وصلنا، لإحتمال عدم مطابقته تماماً للحقيقة.

٢ - للدلالة على وجوب الأدب مع الوالدين، سواء في حضورهما، أو في غيابهما، أو بعد موتهما، وأبناء يعقوب يعطوننا المثال الجميل في التأدب بالخطاب مع أبيهم، وهو غائب عنهم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٣]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، لتصِفَ لنا حالَ يعقوبَ عليه السلام، بَعْدَ أنْ وصَلَتْهُ أخبارُ السّرِقَةِ، والاحتجاز، وما آلَ إليه أمرُ كبير أبنائه، بالبقاء في مِصْر، وها هُمُ الأبناءُ في حضْرَته، وقَدْ ألْقَوْا معَاذِيرَهُم وهُمْ يَنْتَظِرُونَ قولَه وحُكْمَه. .

فلْنستمعْ إلى الآية الكريمة، ولنتأمَّلْها .

يقولُ الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام: **﴿قال بل سَوّلَتْ لَكُمْ أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميل﴾**.

في هذا الشطر من الآية لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ هذه العِبارةِ المفصَلِّيةِ الأساسية. التي سَبَقَ أنْ سمِعْنَاها منه حَرْفاً بحرف، حين جاءَهُ خبَرُ فَقْدِ يُوسفَ عليه السلام، في أوّلِ السورة. إذْ نقرأ في الآيةِ الثامِنَة عشرة: **﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لكم أنفُسُكُمْ أمراً فصبرٌ جميل﴾**.

وهذا مِنْ جمالِ أُسلوبِ السَرْدِ القرآنيّ، تَطْمئِنُّ به نفْسُ القارىء والمستمع، وتَسْتَشْعِرُ بالتناسُقِ التامِّ بينَ آيِ القرآنِ الكريم، حتى قَبْلَ الانتباهِ إلى المعْنَى الذي تَحْمِلُه هذه الآيات.

اللطيفة الثانية: في إجرائنا لمُقَارَنَةٍ بينَ حالِ نبيِّ الله تعالى، يعقوبَ عليه السلام، في كِلا الموقفين. فنَجدُ ما يلي:

في الموقفِ الأوّل، يومَ فقْدِ يوسفَ عليه السلام:

لم يأتِه إعلامٌ منَ الله تعالى، رَغْمَ أنه نبي، تدليلاً على بشرِيتِه، وهذا ما لم يَفْهَمْهُ كثيرٌ مِنَ الخَلْق، في تعامُلِهم مَعَ أنبياءِ الله تعالى ورُسُلِه.

ولقد ساوَرَهُ الشَكُّ في صِدْقِ الأبناء، وكان شَكُّهُ صحيحاً واقِعاً في مكانِه.

ولقد جاؤُوه بأدِلّةٍ حسّيةٍ بإراقةِ الدمِ الكَذِب على قميصِ يوسفَ عليه السلام، أرادُوا منها شَاهِداً على صِدْقِهم.

ولم يكُونُوا صادِقين في أقوالِهم، ودَعَمُوا كلامَهم بقولِهم: **﴿وما أنت**

بمُؤمنٍ لنا ولو كُنّا صادِقين..﴾[١].

أمّا في الموقفِ الثاني، يومَ فقَد ابْنَه الأصغر:

فهنا أيضاً لم يأتِه إعلامٌ مِنَ الله تعالى عَنْ مصيرِه.

ولقد ساوَرَهُ الشكُّ في صِدْقِ الأبناء. وكان شَكُّهُ في غيرِ مَوْضِعِه.

ولقد صَدَقُوه حقاً، وأنّى له أنْ يُصَدِّقُهم حقّا.

وما استطَاعُوا أنْ يأْتُوا بالأدلةِ الحسيّةِ المُقنّعة.

إلا أنهم قالُوا هذه المرة: **﴿وإنّا لصَادِقُون﴾**.

اللطيفةُ الثالثة: في لحظِنا لقوةِ إيمانِ يعقوبَ عليه السلام بنُصرةِ الله تعالى له، ومتانَة هذا الإيمانِ في قَلْبه. فعلى الرغم مَنْ فَقْدِ يوسفَ عليه السلام، وما يُمَثِّلُهُ من أهميةٍ بالغةٍ في حياتِه قال: **﴿فصبرٌ جميل﴾**[٢] ولقد صَبَر حقّاً وصِدْقاً، ثم إنه لمّا جاءَهُ خبرُ فقْدِ ابنِه الأصغر، قال: **﴿فصبرٌ جميل﴾**.

كم نَجِدُ مثلَ يعقوبَ عليه السلام، في احتسابِه وصَبْرِه؟ قليلٌ جداً مِنَ الناسِ الصّبور.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام: **﴿عسَى الله أنْ يأتِيَنِي بهم جميعاً إنه هو العليمُ الحكيم﴾**.

في هذا الشطرِ مِنَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُلِنا لدقةِ العبارةِ القرآنية، فيما ذَكَرَهُ يعقوبُ عليه السلام وهو يخَاطِبُ أبناءَه إذْ قال: **﴿عَسَى الله﴾**.

وهذا أدَبٌ جَمٌّ معَ الله تعالى. فهو لم يَطْلُبْ مِنَ الله تعالى أنْ يُعيدَ إليه

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ١٧].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ١٨].

أبناءَه، ولو شاءَ لفعلَ ذلكَ منذُ زمنٍ طويل، يومَ أنْ فَقَد يوسفَ عليه السلام، وقَبِلَ قضاءَ الله تعالى، صَابِراً مُحْتَسِباً.

ولمَّا اشتَدَّ عليه الغَمُّ مع هذه الواقعةِ الجديدة، تمنّى أنْ يَجْرِيَ قَضَاءُ الله تعالى مَجْرَاهُ في اتجاهِ عَوْدَةِ الأبناء، يَحْدُوهُ في ذلك نباهَتُه في التقاطِ الإشارات.

وأهمُّ هذه الإشارات، هي رُؤْيا يوسفَ عليه السلام، حينَ كانَ صغيراً، كما مَرَّ معَنا في أوّلِ السُّورة، وهو مؤمنٌ بِصِحَّتِها وصِدْقِها، وقد عَلِمْنَا أنَّ الله تعالى قد أنْعَمَ عليه بتأويلِ الرُّؤى، كما أنْعَمَ على يوسف عليه السلام.

ولقد رأى يوسفُ عليه السلامُ أحَد عشَر كَوكباً، والشمسَ والقَمَر رآهُم له سَاجِدِين. ولمّا لم تَتَحَقَّقْ هذه الرؤيا بعد، فهو يَنْتَظِرَ تَحقُّقَها.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِه: ﴿**جميعاً**﴾.

ولقد يتَبادَرُ إلى ذِهْنِنا أنَّ يعقوبَ عليه السلام، قَصَدَ بقولِه جميعاً، المفقودين: يوسفَ وأخاه الأصغَر، وإذاً لكانَ حصَلَ المعنى بقولِه: عسى الله أنْ يأتِيَني بهما، بالتثنيةِ لا بالجمع.

إلا أنّ يعقوبَ عليه السلام، كانَ أرْأفَ وأرْفَق، إذ إنه لم يَنْسَ ابنَهُ الأكبر، الذي لم يَعُدْ هُوَ أيضاً معَ إخوتِه، فكانَ مَعْنِيّاً هو أيضاً بقولِه: ﴿**عسى الله أنْ يأتِيَنِي بهم جميعاً**﴾.

ولَنَا أنْ نَسْأَلَ: أليسَ في غِيابِ الأخِ الأكبر، دليلٌ يُقَوِّي ادِّعَاءَ الإخوة، ويَدْعَمُ صِدْقَهم في رِوايتِهم لِمَا حَدَثَ معَهم في مِصْر، وقَرارُ الأخِ الأكبرِ بالبقاءِ في مِصْر، تَعبيرٌ عَنْ تمَسُّكِه بالتزامِه بمِيثاقِه أمامَ أبيه، بالحفاظِ على أخيه.

فيأتِي الجواب: بَلْ هُوَ الدليلُ الحِسيُّ على عَدمِ صِدْقِ الأبناءِ فيما ذَكَرُوه عنْ مصير يوسفَ عليه السلامُ، في الماضي، حين ادَّعَوْا أنَّ الذِئْبَ قَدْ أكَلَه، ولقَدْ أعطى الله تعالى يعقوبَ عليه السلامُ مِنَ النجابةِ والنَّبَاهَة، ما مَكَّنَهُ مِنَ التقاطِ هذه الإشارة، وتعزيزِ آمالِه ببقاءِ يوسفَ عليه السلامُ حَيّاً..

ما كانَ للابنِ الكبيرِ أنْ يَبْقَى في مِصْر، لولا تأنيبُ الضميرِ، الذي انتابه، وتَوْقُه إلى التوبة، وطَلَبُهُ للمغفرة، وهذا أصْدَقُ إنباءَ مِنْ كلِّ كلامٍ سابقٍ ذَكَرُوه.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عِنْدَ ما ذَكَرَ يعقوبُ عليه السلام، مِنْ أسماءِ الله الحُسْنَى. فلقد قال: ﴿**إنه هو العليمُ الحكيم**﴾.

ولقد اعتَدْنَا على سماعِ خِتامِ الآياتِ المماثلة، بقولِ الله تعالى: إنه هو السميع العليم.

أمَّا هنا فنَقرأ: ﴿**إنه هو العليمُ الحكيم**﴾.

وتفصيلُه: أنَّ يعقوبَ عليه السلام، لم يَطْلُبْ مِنْ الله تعالى أنْ يفْتَح لَهُ الغيب، لمعرفةِ مَصيرِ أبنائه، بل سلَّم أمرَه كُلَّه إليه، ولم يتوَجَّهْ بالدعاءِ لِيَخْتِمَ بالقول: إنه هو السميعُ، بل توَجَّهَ بالتسليم والتَّوَكُّل، يُريدُ أنَّ الله تعالى يَعْلَمُ الغَيبَ كُلَّه، وله الحِكْمَةُ المُطْلَقَةُ في كلِّ ما يشاء، فكانَ قولُه: ﴿**إنه هو العليمُ الحكيم**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الصبر عند الصدمة الأولى، وها هوذا يعقوب عليه السلام، يعطينا المثال تلو المثال: فلقد صبر عند فقد عزيزه الأول يوسف عليه السلام، وها هو يصبر عند فقد عزيزه الآخر ابنه الأصغر، وهو مصاب جلل. ولنا في أبنياء الله تعالى أسوة حسنة وعلينا أن نتصرف بما يرضي الله تعالى عند حصول المصاب.

٢ - للدلالة على وجوب عدم قطع الأمل، أو اليأس من رحمة الله تعالى، مهما كانت الأحوال سيئة حال وقوع المصاب، فالله تعالى أدرى بما هو أفضل وأنسب، وما عنده في بطن الغيب لا يعلمه إلا هو وقد أمرنا بالصبر والإحتساب، وتوقع الفرج حتى وإن كنا لا نرى بصيصه.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٤]

تنقُلُنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مشهدٍ عظيمٍ مِنْ مشاهِدِ الحُزْن، وإنها بحقٍ آيةُ الحُزْنِ في سُورةِ يوسف. نجدُ فيها يعقوبَ عليه السلام، وقد ضَاقَتْ عليه الدُّنيا بما رَحُبَت، وأظلَمتْ على ضيائها، ليس مِنْ ذنبٍ اقترفه فهو يُعاني منه مَرارَة النَدم، ولا مِنْ خطيئةٍ اجترحَها، فهي تأسِرُه في شباكِها، بل مِنْ توالي المِحَنِ عليه، وقد وفَدَتْ إليه وَفْداً، واستقرَّتْ في أرجاءِ قَلْبِه، تعْتمِلُ فيه عَصْراً.

فلنستمِعْ إلى كلامِ الله تعالى، في وصْفِ حالِه، ولنتأمَّلِ الآية.

يقولُ الله تعالى: **﴿وتولّى عنهم وقال يا أسفا على يوسفَ وابْيَضَّتْ عيناهُ مِنَ الحُزْنِ فهو كظيم﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لهذا الوصفِ التصاعُدِيّ لحالِ الألمِ والحُزْن، الذي يُعانِيه يعقوبُ عليه السلام. والآيةُ تصفُ لنا ثلاث مراحل:

المرحلةُ الأولى بقولِه تعالى: **﴿وتولَّى عنهم﴾**.

المرحلةُ الثانيةُ بقولِه تعالى: **﴿وقال يا أسَفا على يوسف﴾**.

المرحلةُ الثالثةُ بقولِه تعالى: **﴿وابيَضَّتْ عيناه مِنَ الحُزْن﴾**.

وفي كلِّ مرحلةٍ مِنَ المراحل، وَصْفُ حالٍ يطُول.

ولقد شاءَ الله تعالى أنْ يكونَ الترتيبُ على ما جَاءَتْ به الآيةُ الكريمة، لأنها كذلك عِنْدَ النّاس، فهي تصِفُ واقِعَ الحُزنِ لديهم..

اللطيفة الثانية: في وقُوفِنا عندَ قولِه تعالى: ﴿**وتولّى عنهم**﴾ ونتساءل: ما الحاجةُ إلى أنْ يتولّى يعقوبُ عليه السلام، وهو رَبُّ الأُسْرة، وأبو العائلة، عَنْ أبنائه ومُحيطه.

الجوابُ هو: أنه إنسانٌ بشَر، تفيضُ به المشاعِر، فلا يَستطيعُ أنْ يُنْكِرَها، وهو في هذه اللحظات، في أشَدِّ حالاتِ الكَرْبِ والغَمّ.

والإنسانُ في مثلِ هذه الحال، يَنزِعُ إلى الاختلاء بنفسِه، ويطْلُبُ العُزْلَة عنِ الناس، ويحتاجُ إلى الهدوءِ والسَّكينة، يَرْغَبُ بالاستقرارِ والثَبات، والاقتصاد في التواصُلِ معَ العالمِ الخارجي. هي لحظاتٌ عاليةٌ جداً مِنَ الصفاء المشُوبِ بالألمِ الذي يَعْتَصِرُ الفؤادَ، والذي لا يستطيعُ حضورُ الناسِ إليه أنْ يُزِيلُوا الألم، بل يُعَكِّرون الصفاءَ معَ بقاءِ الألم.

لقد اكتملتْ في نفسِه مُعطياتُ الإيلامِ كُلُّها: ألَمُ فِراقِ يوسفَ عليه السلام، على مدى سَنواتٍ طويلة، لا يَعْرِفُ عنه شيئاً، بل يَعْرِفُ في قرارةِ نفسِه، أنه لم يَمُتْ، وهذا أشَدُّ وأنْكى، يضاف إليه اختزانُ هذا الألم، في خَزّانِ المشاعِرِ الذي يجِدُ مُتَّسَعاً للمزيدِ فيركُمُ بعضُه بعضاً، حتى إذا ما بَلَغَ مَبْلَغاً عالياً، أصبحتِ النفسُ ناضجةً للتعبير، لا يَمْنَعُها عن ذلك إلاّ تقادُمُ السنينَ على الحدث.

فإذا ما حَصَلَ حَدَثٌ يُقارِبُ الحدَثَ الأول، كانَ بمثابةِ القَطْرةِ الأخيرةِ التي تُطْفِحُ الإناء، فيَفِيضُ على القلبِ براكينَ مِنَ الحُزنِ والكَمَد، تُغالِبُ قسْوَتَه، وتُذهِبُ تماسُكَه، فيُصْبِحُ طرياً نَديّاً لا يَقْوَى على المُقاومة، ثم يتَهاوَى مُعْلِناً الاستسلامَ لسُلْطانِ الحُزْن، فتتساوَى عندَه كُلُّ أحداثِ الحياة، وتفْقِدُ أضواءُ السعادةِ بريقَها، وتضيقُ زاويةُ المشاعِرِ حتى تَنْحَصِرَ بفيضِ الحُزنِ النَازل من مخازِنِ الحُزْن، فتَطْلُبُ النفسُ آنها العُزْلَةَ والبُعاد، والخَلْوَة والتَأْي. لهذا قالَ الله تعالى: ﴿**وتولّى عَنهم**﴾.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ قولِه: ﴿**وقال يا أسفًا على يوسف**﴾ فإذا بنا نَلْحَظُه، وللمرةِ الأُولى منذُ بدايةِ السورة، ومنذُ أنْ أُبْعِدَ عنه يوسفُ عليه السلام، منذُ زمنٍ بعيدٍ جداً، وفي وقتِ إبعادِ ابنه الأصغرِ عنه، يذْكُرُ يوسفَ عليه السلام، ولا يَذْكُرُ الأخَ الأصغر.

وفي هذا دهشةٌ واستِغْراب.

ويَزُولُ استغرابُنا حينَ نَعْرِفُ أنَّ الكُلّ يستغرقُ الجُزء، والكُلُّ هو حُزْنُه على يوسفَ عليه السلام، هذا الحزنُ المتفاعِلُ المتقادِمُ الذي تمالَكَه كُلَّ هذه السنينَ الطِوال، وحينَ تمَلَّكَهُ الآن، لم يَمْلِكْ عَدَم ذِكْرِه، فذَكَرَهُ مُنْفَرِداً.

ولَنَا أنْ نُلاحِظَ أنه لم يَذْكُرْ أسفَه على يوسفَ عليه السلام، إلا بعدَ أنْ تولّى عَنهم، وفي هذا أَدَبٌ معَ الله تعالى. فهو لا يَشْكُو حُزْنَهُ إلى الناس. بل يَشْكُوه إلى الله تعالى. وتلك قِمّةُ الأدبِ في أصعبِ موقف.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قولِه تعالى: ﴿**وابيَضَّتْ عيناهُ مِنَ الحُزنِ**﴾ وليسَ لنا أن نَدْخُلَ في كيفية حصولِ ذلك. وإنْ كَثُرَ التأويل والتفسيرُ مما قد يُخرِجُنا عن الموضوعيةِ في الفَهْمِ لآي القرآن الكريم. كلُّ ما لنَا أَنْ نقُولَ: هو أنَّ هذا الحُزْن العميقَ قد تترْجَمَ مادِيّاً إلى العَلَن، بحصولِ البياضِ في العينين، وذَهابِ البَصَر، وتلك مِنْ أعظمِ مصائِبِ الفَقْدِ في الدُّنيا، وكأننا نصِلُ معَ يعقوبَ عليه السلام، إلى القمةِ في الإيلام، ولو وُجِدَ ايُّ إنسانٍ في مثلِ هذا الموقف، لكانَ في حالٍ مِنَ الثَوْرَةِ والهَيَجان، ما لا يُمْكِنُ ضَبْطُه، وكثيرٌ مِنَ الناسِ يَقَعُ في براثِنِ الشيطانِ اللعين، في لحظاتِ الضَعْفِ تلك، فمنهُمْ مَنْ يَتمرَّدُ على قضاءِ الله تعالى. ومِنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ والعِياذُ بالله، وأَقَلُّهُمْ انفعالاً تَنْتَابَهُ حالٌ مِنَ الاستياء العارِم، الذي قد يُتَرْجَمُ صُراخاً أو عوِيلا..

وهذه أَخْطَرُ اللّحظاتِ على الإنسان، وكثيرٌ منَ الناسِ مَنْ يسْقُطُ في

obeikandl.com

الامتحان، ونَسْمَعُ ونَرى العديدَ مِنْ حالاتِ الإقدامِ على الانتحارِ، أو محاولاتِ الانتحار، وذلك حصيلةُ ضَعْفِ الإيمانِ بينَ الناس.. أمّا يعقوبُ عليه السلام، فلقد أوكَل أمْرَهُ إلى الله تعالى، وطوَى كُلّ هذا الكَمّ الهائلَ منَ الحُزنِ في داخلِه، فكانَ أثرُه على عَينيه، حصول البياض وذَهابَ البصر، فلم تَزِدْهُ هذه المصيبةُ الجديدة إلا إيماناً وصَبْرا، فحقَّتْ له الشهادةُ منَ الله تعالى إذْ قال فيه في آخِرِ الآية: ﴿فهُوَ كَظِيم﴾.

أي يَكْظُمُ الغيظَ والحُزْنَ والألَمَ ويَكْتُمه.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الحزن على درجات متفاوتة، منها ما هو سطحي ينتج عن مسألة عابرة، ويبقى بدون عمق في القلب، ومنها ما هو أعمق بقليل، وهو يترك قبل ذهابه بعض الندوب، ومنها ما هو شديد العمق، حاداً قاسياً قارساً، ينكت في القلب نكتا ويحفر فيه الأخاديد، ولا يبارح النفس إيلاماً، لا يكاد يخبو حتى يعود إلى الهيجان والثوران، وهذا النوع بعيد الإيغال طويل المدى. لا يكاد يذهبه شيء، ولا حتى تقادم السنين.

٢ - للدلالة على أنه، حتى وإن اشتد الحزن وبلغ أقصى مداه، لا ينبغي على الإنسان أن يفقد ثقته بالله تعالى، أو أن يسمح للشيطان أن يكون له عليه سلطان، وهو أقرب منه في هذه اللحظات مما هو في غيرها، ويدفعه دفعاً إلى اليأس والقنوط، وحتى وإن أحس من نفسه الرغبة بإيذاء نفسه أو الآخرين، فليدرك تماماً أن هذا الشعور هو طارىء عليه دخيل، فليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم وليوكل أمره إلى الله تعالى، فهو حسبه، وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٥]

تُتابع معَنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، وصْفَ حالِ يعقوبَ عليه السلام، وقد أخَذَ منه الحزنُ كُلَّ مأخذ، حتى ابْيَضَّتْ عيناهُ وذَهَبَ بصَرُه، وها هم أُولاءِ أبناؤُه وأهلُ بيتِه وعشيرتُه، يلْتفُّونَ حوْلَه وقد رأَوْا ما جَرى له مِنْ فَرْطِ حُزْنِه، فكانَ بينهم حوارٌ نستمِعُ إليه في هاتين الآيتين. يقولُ الله تعالى في الآيةِ الأُولى، موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿قالوا تالله تفتؤا تَذْكُر يوسفَ حتى تكونَ حرَضاً أو تكونَ مِن الهَالِكين﴾.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِهم **﴿تالله﴾** وقد مرَّ معَنا في السورةِ أنَّ أبناءَ يعقوبَ عليه السلام، خَاطبُوا حاشِيَة العزيزِ بقولِهم **﴿تالله﴾** وذَكَرْنا أنّ التاء للقسَم، ولا تكونُ إلا بالله تعالى، وحينَ ترِد، تَحْمِلُ معنَى التعجُّب.

لقد قصَدُوا افتتاحَ كلامِهم بالقَسَمِ التعجبيِّ بالله تعالى، لإعطاء الكلام صفةَ الحَزْمِ والأهمية، في محاولةٍ للتخفيف عَنْ يعقوبَ عليه السلام، وثَنْيِه عمّا به من حُزْن.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ كلمة: **﴿تفتَؤا﴾** وأصلُها ما فتِيءَ، أيْ لا تزالُ تذْكُرُ يوسف، وقد حُذِفَتْ «ما» لأنَّ المعنى لا يَلْتَبِسُ بالإثبات تخفيفاً لوقعِ الكلامِ في الأُذن، وإضفاءً لجماليةٍ لُغويةٍ أعْلَى على العِبارة.

وكأنهم يَدْعُونَه مِنْ خلالِ سُؤالِهم الإنكاريِّ بالتوقُّفِ عن ذكرِ يوسفَ عليه السلام، وأتبعوا سؤالَهم بذِكْرِ العواقِب دَعْماً لقولِهم.

اللطيفة الثالثة: في قولِهم: ﴿**حتى تكونَ حرَضا**﴾.

وأصلُ الحَرَضِ في اللغة: الفَسَادُ في الجِسمِ أو العقل، منَ الحُزنِ أوِ العشقِ أو الهَرَم.

ولقد أجادوا في قولِهم، إذ وقَعتِ الكلمةُ في مَوْقعِها المناسبِ تماماً إذْ رأوْا بَدءَ الآثارِ الماديةِ لهذا الحُزنِ المتمادي، على جسدِ يعقوبَ عليه السلام، بحصولِ بياضِ العينين وذَهابِ البَصَر، وهم بالاستنتاج الطبيعي، يَرَوْنَ تفاقُم الضَعْفِ في الجسم، وخَافُوا عليه شِدّةَ الضَعْفِ فقالوا: ﴿**حتى تكونَ حرَضا**﴾.

اللطيفة الرابعة: في لحظنا لهذا التدرج في الإفصاح عن خوفهم على يعقوب عليه السلام، بطريقة تصاعدية:

فذكَرُوا أولاً مسألة استمرارِ ذِكْرِ يعقوبَ عليه السلامُ ليوسف. واعتبروا ذلك غير منطقي، إذْ إنَّ يوسفَ عليه السلام، في ظَنِّهم غير موجود.

ثم ذَكَرُوا ضَعْفَ الجسمِ وتعطُّلَ أجْهِزَتِه، وهذا أدْعَى إلى الانصياع.

ثم ذَكَرُوا ما هو أصعبُ وأشَدّ: فقالوا: ﴿**أو تكونَ مِنَ الهالِكين**﴾. وهذا ما لا يَرضَاهُ يعقوبُ عليه السلام، بطبيعةِ الحال، وهو يعرفُ أنَّ قَتْلَ النفسِ حَرامٌ ولا يَجوز. وكأنهم بذلك يستثيرونَ فيه جانبَ الوَرَعِ، والنأيِ عن إهلاكِ النفس، إذا ما استمرّ على هذا النحوِ من الحُزْن.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأمُّلِنا اليوم:

﴿**قال إنما أشكو بَثي وحُزني إلى الله وأعلمُ منَ الله ما لا تَعْلَمُون**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ كلمة: ﴿**بثي**﴾.

والبث لغةً: هو أصعبُ الهَمِّ الذي لا يصْبرُ عليه صاحِبُه، فيَبُثُّهُ إلى العَلَنِ ويَنْشُرُه.

ويعقوبُ عليه السلام، يَنْفِي أنْ يكونَ بحاجةٍ إلى الناسِ، لِيَنْشُرَ عليهم حُزْنَهُ وأسفَه، ولقد رأينا في الآيةِ قَبْلَ السابقة، أنه تولَّى عنهم، أي نأى بنفسِه عنِ الحاضِرين، وأرادَ ألا يكونَ لأحدٍ من الناسِ حَظٌّ مِنْ شَكْوَاه، أمَا وقَدْ أحاطُوا بِهِ، وأرادُوا ثنْيهُ عمّا هو فيه، أعْلَمَهُمْ علانِيةً، أنه يَشْكُو حُزْنَه إلى بَارِئه، جَلّ وعلا، فقال: ﴿إنما أشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إلى الله﴾.

اللطيفةُ الثانية: في وقوفِنا عندَ أهميةِ هذا التعليمِ والإرشاد لنا، بما جَرى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام، وهو نبيٌّ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّه، يَحْمِلُنا على معرفةِ كيفيةِ التأدُّب معَ الله تعالى، وكيفيةِ التصرفِ معَ النّاس:

فإنّ أعلى النّاسِ مرتبةً في الإيمان، هو الذي لا يَطْلُبُ مِنَ الناسِ المَعُونَة والنُّصْرَة، بل يَطْلُبُ منَ الله تعالى وَحْدَه.

وأوسطُ الناسِ مرتبةً، هو الذي يَطْلُبُ منَ الله تعالى، ويَطْلُبُ منَ الناس.

وأدْنى النَّاسِ مرتبةً، هو الذي يَنْسى أنْ يَطْلُبَ مِنَ الله تعالى، ويطلبُ مِنَ الناسِ.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عنْدَ قولِه: ﴿وأعْلَمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُون﴾ وهذا بحقٍّ، أفضلُ الأجوبةِ إسكاتاً وإقناعاً.

فصحيحٌ أنه لم يأتِه العِلْمُ الغيبيُّ مِنَ الله تعالى بمكانِ يوسفَ عليه السلام، وواقع حالِه ومآله بعد فقْده وإبعادِه، وهذا مما شاءَهُ الله تعالى في إجراءِ سُنَّتِهِ على خَلْقِه. ومِنْهم أنبياؤه ورسُلُه.

إنما جاءَهُ اليَقينُ بأَنَّ يوسفَ عليه السلام، لا يزالُ حيّاً. وذلك منْ خلالِ إشارتينِ اثنينِ سَبَقَ لنا ذِكْرُهما:

الأُولى: رُؤْيا يوسفَ عليه السلامُ حينَ كانَ صغيراً، وقد أخبَرها أباه، وأوَّلَها الأَبُ كَدَراً يُعَكِّرُ صَفو اجتماعِهم بكيدِ إخوتِه له، يَعْقُبُه لقاءٌ يُتَرجِمُ سُجودَ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ الأَحَد عشَر، ليُوسفَ عليه السلام.

الثانية: تصَرُّف الابنِ الأكبرِ بالمكوثِ في مِصْرَ مِنْ غيرِ ما ذَنْبٍ اجترحَهُ في حقِ الابنِ الأصغر. مِمَّا يُعَزِّزُ آمَالَه بأنّ يوسفَ عليه السلام، لم يأْكُلْهُ الذئبُ كما قالُوا له سابقاً.

ولنْ يَكتَفِيَ يعقوبُ عليه السلامُ بقناعتِه الخاصة، بل سيُخْرِجُها إلى العَلن، على ما سنَرَى في لاحقِ الآيات.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن فرط الحزن قد يفضي إلى أضرار جسدية جسيمة غير متوقعة أصلاً، وقد أثبت العلم الحديث وجود هذا التواصل الدقيق بين النفس والجسد، وإن ارتداد حال التوتر على الجسم قد يتناول عدة أعضاء من الجسم، بل إلى كل الجسم إلى حيث تصل النهايات العصبية، ولقد يترجم هذا التفاعل مع حال الحزن تسرعاً في ضربات القلب، أو تضيقاً في النفس، أو إحساساً بالخدر والتنمل في الأطراف، أو وهناً وإعياءً في العضلات أو انعدام الشهية على الطعام، أو اضطراباً في النوم، أو حتى مستوى أعلى من الأذية، كحدوث شلل في أحد الأطراف أو ذهاب السمع أو البصر، أو مشاكل في الدورة الهرمونية المعقدة، أو ظهور أمراض عضوية، كمرض السكري أو تصلب الشرايين أو انسداد الأوعية الدموية.

٢ - للدلالة على أن الإنسان الحصيف، يمكنه أن يرى الإشارات من بين ظلال الأحداث، ويستنتج أموراً لا يراها غيره، ويمكنه أن يبني الفرضيات، ويتأمل تطورات في الأحداث، إذا ما حصلت فهي توكد صحة افتراضاته وتوثق صحة استنتاجه.

ثم يقول الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٦]

تحْمِلُ لنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، مَبْدأً إنسانياً عاماً، أجراه الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام، مَنْ عَمِلَ بهِ فَازَ في الدنيا والآخِرة، ومَنْ أغْفَلَهُ وأعْرَض عنه خَسِرَ خُسراناً مُبيناً، ولقد جَعَلَهُ يعقوبُ عليه السلامُ أساسَ حلِ أشدِّ الأزَمَاتِ تعقيداً، في حياةِ أبنائه، سيكونُ بها خلاصُهم مِنْ محنتهم الذَاتية، في صفاء قُلوبِهم وتنقيتها مِمَّا عَلَقَ بها مِنْ شوائِبِ سُوءِ تصرُّفِهم، في حقِ يوسفَ عليه السلام.

يقول الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام: **﴿يا بَنيَّ اذْهَبُوا فتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسفَ وأخيه﴾**.

في هذا الشطرِ من الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لخِطاب الوُدِّ الذي افْتَتَح بهِ يعقوبُ عليه السلامُ الآية بقولِه: **﴿يا بَنِيّ﴾** وفي هذا إيذانٌ بانتهاءِ مرحلةٍ وبَدْءِ مرحلةٍ جديدة، ونَفْهَمُ مِنْ قولِه:

إنَّ يعقوبَ عليه السلامُ، على الرُّغم مِنْ شِدّةِ حُزْنِه، يُدْرِكُ أنَّ الله تعالى معَه، وأنَّ الفَرَج آتٍ لا محَال، وأنَّ المِحَنَ التي مرَّتْ بأبنائِه غيَّرَتْ مِنْ طباعِهم، فصارُوا على مُستوى أعلى مِن الوَعْيِ والإدراك، وتغَيَّرتْ نَظْرَتُهم إلى الحياة، وإلى مَعاني الحُبِّ والتّسامُح.

وفي هذا الموقفُ بالذّات، يريدُ أنْ يُعبر لهم عَنْ مَعرفتِه بِتَغَيُّرِهم، فإذا به يُنادِيهم بالنِّداءِ المُحَبّب: ﴿يا بَنِيَّ﴾.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عند غَزارةِ المعنى الذي تَحْمِلُه عبارة: ﴿فتَحَسّسُوا﴾ وكان يُمْكِنُه أنْ يقول: اذهبوا فابْحَثُوا عَنْ يُوسُفَ وأخيه، إلا أنْ كلمةَ: ﴿تَحَسّسُوا﴾ تَرْتَقِي إلى مُستوىً أعلى مِنْ مجردِ البحث. فالتحسُّسُ، هو استعمالُ كُلِّ أدواتِ الحِسِّ التي يَمْلِكُونَها وهي السَمْعُ، والبَصَرُ، واللَّمْسُ، والكَلامُ، والسُؤالُ، والملاحظةُ، والانتباه، والتحليلُ، والاستِدْلالُ، والاستنتاجُ، وبَثُّ العُيون..

كلُّ ذلكَ للإفادةِ مِمَّا يجمعونَهُ مِنْ معلوماتٍ تُفيدُهم في الوصولِ إلى يوسفَ عليه السلام، وهو المقصودُ حقيقةً بالعبارة، لِعِلْمِنا بأنَّ مكانَ الأخِ الأصغر، معروفٌ لديهم.

اللطيفة الثالثة: في تساؤُلِنا عَنْ سببِ وُرودِ حرفِ الجرِّ «مِنْ» بَدلَ «عَنْ» في عبارة: ﴿فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ ففي استعمالنا المُعْتَادِ في كلامِنا، نقول: تحسّسْ عن.

وهنا في الآيةِ إخفاءٌ وتبْعِيض.

والمعنى المراد: إذْهَبُوا وتحَسّسُوا عَنْ بعضِ أخبارِ يوسفَ وأخيه. فاستُبْدِلَ حرفُ الجرِّ وصارَ مِنْ، وحُذِفَتْ عِبارَة: بعضُ أخبار، لما في ذلك مِنْ جماليةٍ لُغويةٍ فَرِيدة.

اللطيفة الرابعة: في مُلاحَظَتِنا أنَّ يعقوبَ عليه السلام، كانَ دقيقاً في كلامِه، مِمّا قد لا يَنْتَبِهُ إليه إلا القارئُ المتأنّي: فلقد سَمِعْنَاهُ في الآيةِ الثالثة والثمانين يقول: ﴿عَسى الله أنْ يَأْتِيَني بهم جميعاً﴾ يقْصِدُ بذلك أولادَه الثلاثة البعيدين عنه: يوسفَ عليه السلام، والابنَ الأكبر، والابنَ الأصغر.

أمّا هنا فلا يَذْكُرُ إلا يوسفَ عليه السلام، والابنَ الأصغر. وبيانُه: أنْ الابنَ الأكْبَر حُرٌّ طَلِيق، ومعروفُ المكان، وقدْ تأخَّرَ عنِ العودةِ طائِعاً مُختاراً، وهو جاهزٌ للعودةِ فَوْرَ زَوالِ الشِدة، ولذلك، فلا حاجَة لتحسُّسِ الإخوةِ عنه، فأفردَه يعقوبُ عليه السلامُ عنهما، ولم يَذْكُرْهُ معَهما.

اللطيفة الخامسة: في مُلاحَظتِنا أنَّ يعقوبَ عليه السلام، يُفْصِحُ للمرةِ الأُولى، فيما أعطى مِنْ أوامِرَ لأبنائه، عَنْ يَقِينِه بأنَهُمْ لم يَصْدُقوه حينَ ادّعَوْا أنّ الذئبَ أكلَ يوسفَ عليه السلام، بل هو يأْمُرُهُم بالذهابِ للبحثِ عنه، ولم يُجِيبُوا باستحالةِ ذلك، وفي عدمِ جَوابِهم تكذيبٌ لهم في روايةِ أكْلِ الذئبِ له، وهم بذلك يُعْلِنُونَ ضِمْناً أنك يا أبانا على حَقٍ في عدمِ تَصْدِيقِنا في الماضي، وأنّ الذئبَ لم يأْكُلْهُ حقّاً، فسَكَتُوا، ومَضَوْا إلى تنفيذِ أمرِ أبيهم، وهذا دليلٌ آخرُ على التبدُّلِ الإيجابيّ الحاصِلِ لدَيْهِم، والله تعالى أعْلَمُ بما في نفُوسِهم، فانْقَادُوا طَائِعين، وانطَلَقُوا مَرْضِيِّين.

اللطيفة السادسة: في تَساؤُلِنا عنِ الوِجْهَةِ التي يَنْبَغِي لهم أنْ يتّجِهُوا إليها للبحثِ عنِ المفقُودَين:

أمّا الابنُ الأصغر، فمعروفٌ أنه في مِصر، وقد تَركُوه هناكَ تحتَ إمرةِ عزيزِ مصر.

لكنّ، يوسفَ عليه السلام، كيف يَبْحثون، عنه، وأرضُ الله تعالى واسِعة، وهُم لا يَعْرِفُونَ شيئاً عَنْ مَصِيرِه، ولا مَنْ أخَذَه، ولا إلى أيِّ بلدٍ صَارَ مآلُه؟

الجوابُ يأتينا مِنْ نباهَةِ يعقوبَ عليه السلام، وعُلُوِّ ذَكائه:

لقد تتالتِ الأحداثُ وسارَعَتْ منذُ أنْ ذَهَبَ أولادُه في رِحْلتِهم الأُولى إلى مِصْر، وعَادُوا مِنها بدونِ المُؤَن، ليُحرِّكُوا سُكُونَ الانتظارِ الذي طالَ أمَدُه في حياةِ يعقوبَ عليه السلام، وهو يَنْتَظِرُ الإشاراتِ مِنْ الله تعالى، لدُنُوِّ أجلِ انتهاءِ المِحنة.

ثم إنه أدْرَكَ أنه ليس عَادِياً أنْ يَطْلُبَ عزيزُ مِصْرَ فتى عَادِياً لا يَعْرِفُه مِنْ بلدٍ بعيد، لكي يَراه. وتلكَ كانَتِ الإشارةُ الأُولى.

ثم رأَى أنَّ الأحداثَ تسيرُ في اتجاهِ التصوُّرِ الذي يَتَمَنَّاهُ أنْ يكونَ حقيقةً. وهو أنْ يكونَ عزيزُ مِصرَ هو يوسف عليه السلام. وذلكَ حينَ جاءَتْه أخبارُ سَرِقَةِ الصُّواع. ويعقوبُ عليه السلامُ يَعْرِفُ أبناءَه جيداً. ويعرِفُ أنّ ابْنَه الأصغَر لن يسْرِقَ أبداً.

رَبَطَ بينَ حاجَةِ يوسفَ عليه السلامُ إلى تأديبِ إخوتِه، وتَنْقَيتهم مِنْ سُوءِ صنيعِهم، وبينَ اشتدادِ المِحنةِ عليهم، وفصلِ الابن الأصغرِ عنهم، لعدمِ اشتراكِه معَهُمْ في الإساءة، وتلك كانَتِ الإشارةُ الثانية.

ثمّ إنَّ بقاءَ الابنِ الأكبرِ في مِصْر، جاءَ ليعطي يعقوبَ عليه السلامُ الدليلَ الثابِت على أنَّ يوسفَ عليه السلام، لم يأْكُلْهُ الذِئبُ، وتلكَ كانَتِ الإشارةُ الثالثة...

فالتقطَ كلَّ تلكَ الإشارات، وأَرسلَ أوْلادَهُ شَطْرَ مِصْر، طَامِعاً في أنْ يكونَ هذا العزيزُ الغريبُ الشأْنِ ابنَهُ يوسفَ عليه السلام، دونَ أنْ يكونَ على يقينٍ مِنْ ذلك.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلام، في تتمةِ الآية:

﴿ولا تيأسُوا مِنْ رَوْحِ الله إنه لا يَيْأسُ مِنْ رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون﴾.

وكم جميلٌ مِنّا أنْ نقِفَ عند هذا الأمر، لنَعْلَمَ أنَّ يعقوبَ عليه السلام، لم يتوجَّه بِهِ إلى أبنائِه فقط، بل هو يُعَلِّمُنا كيفَ نسْلُكُ في دُروبِ الحياة، هو يبني لنا مَنْهَجاً شاءَهُ الله تعالى لعبادِه المؤمنين، سبيلَ الفلاحِ والنجاحِ والنّجاة، سبيلَ الوُصولِ إلى سعادةِ الدارين، تَجْعَلُنا نفْهَمُ مَدى حُبِّ الله تعالى لنا، وقُرْبه منا، فنَعْلَمُ بذلك أنّ فوقَ كُلِّ ذِي علمٍ عليم، وأنَّ أشَدَّ الأُمورِ صعوبةً، وأعْسَرَها

حَلاً، وأقسى المصائِب والمصَاعِب، ليستْ إلا ظاهِراً منَ الأمر، وأنّ الفَرَجَ آتٍ لا مَحَالة، وكلُّ شيءٍ إلى تبدُّلٍ وتَغيُّر، وأنّ معَ العُسرِ يُسرا، وأنّ كل عُتُلٍّ جواظٍ مُتَكَبِّرٍ، مصيرُه إلى الذُّلِ والهَوَان، وأنّ كُلَّ ظالمٍ مُسْتَبِدٍ مصِيرُه إلى الانكسارِ والانتكاس.

وفي ذلك، كمالُ السَكينةِ والطُّمأْنِينةِ للمؤمنين، الذين يَعْلَمُونَ تماماً أنه مهما اشتَدَّتْ عليهم الأزَمَات، وعَصَفَتْ بِهم النوائب، فإنّ فَرَجَ الله تعالى آتٍ، نقُولُها لكلِ المَظْلُومينَ المُهَانين: إقْرَأوا هذه الآية وأيقنوا بفرجِ الله تعالى ونُصْرَتِه.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب إلغاء كلمة اليأس من قاموس المؤمنين وذلك لكي يكون هذا الإلغاء إشارة الإيمان وترجمته العملية في حياتهم، ومهما اشتدت النوائب، نعرف أن الله تعالى بها عليم، وأنه قادر على إزالتها في أقل من طرفة عين، وإن وجودها جزء من سنة الله تعالى في خلقه في الحياة الدنيا، لأنها دار امتحان وابتلاء، فمن صبر ظفر، ومن لم يصبر سقط في الإمتحان وجر أذيال سقوطه معه إلى الدار الآخرة.

٢ - لاعتماد عبارة ﴿ولا تيأسوا من روح الله أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾، شعاراً نعلمه لأبنائنا منذ نعومة أظفارهم، ليكون لهم رفيق درب الحياة، يشحذ هممهم ويجعلهم أقدر على مواجهة صعاب الحياة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٧]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن إلى مشهدٍ جَديدٍ من مشاهِدِ قِصّة يوسفَ عليه السلام، وقد بدأت ملامِحُ الحلحلةِ للتأزُّم بالظُّهورِ في حقِ يعقوبَ عليه السلام، في حينِ أنّ التأزُّمَ بَلَغَ أقْصَى مَداهُ في حقِّ إخوةِ يوسفَ عليه السلام.

فلْنبدأ بتأمُّلِ الآية.

يقولُ الله تعالى: ﴿**فلمّا دَخَلُوا عليه قالُوا يا أيها العزيزُ مسَّنَا وأهلَنا الضُّر وجِئنا بِبِضَاعَةٍ مُزجاة**﴾.

في هذا الشطْرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لأسلوبِ الفواصلِ عندَ بدءِ كلِّ مشهد، بما يَتناسَقُ ويتّصلُ بالفَاصِلِ الذي سَبَقَه.

فافتتاحُ المشهدِ الحاليّ، يبدأ بقولِ الله تعالى: ﴿**فلمّا دَخلُوا عليه**﴾، وافتتاحُ المشهدِ السابق، يبدأ بقولِ الله تعالى: ﴿**ولمَّا دَخلُوا على يوسف**﴾(١).

وافتتاحُ المشهدِ اللاحق، يَبْدأ بقولِ الله تعالى: ﴿**فلمّا دَخلُوا على يوسف**﴾(٢).

وهذا الافتتاحُ يَبْعَثُ في النفسِ الطُمأْنينَة وتَذَوُّقَ جمالِ القصصِ القرآنيّ.

اللطيفة الثانية: في لَحْظِنا لهذا الانتقالِ السريعِ في المشهد، مِنْ مجلسِ يعقوبَ عليه السلام، إلى مجلسِ يوسفَ عليه السلام في مِصر. وقد عَوَّدَتْنا الآياتُ السابقةُ على هذا الانتقالِ السريع، بغيرِ إعلامٍ في السَرْد، لإيلافِ القارىء والمستمعِ لهذا الأُسلوب.

اللطيفة الثالثة: في دَهْشَتِنا واستغرابِنا لفحوى الخطابِ الذي خاطبَ به الإخوةُ يوسفَ عليه السلام:

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٦٩].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ٩٩].

obeikandl.com

فلقد أوْصَاهُمْ يعقوبُ عليه السلامُ في الآيةِ السابقة، أنْ يَذْهَبُوا ويتحسَّسُوا مِنْ يوسفَ عليه السلامُ وأَخيه.

وطالبَهم بأنْ يَجعَلُوا كُلَّ جُهْدِهم مُنَصَّباً في هذا الاتجاه. وأرسَلَهُمْ إلى مِصرَ في رحلةٍ ثالثةٍ لهذا الغرض.

فإذا بهم حينَ دَخلُوا على العزيز، لا يأْتونَ على ذِكْر أخيهم الأصغر. ولا يُشِيرُونَ إلى طَلَبِهم الذي جاؤوا مِنْ أجْلِه.

ولا يَذْكُرون شيئاً عَنْ أبيهِ الشيخِ الكبير، كما فَعَلُوا في الرحلةِ السابقة.

وها هم يطْلُبونَ الغذاءَ والمُؤَنَ، عِلْماً بأنّ هذا المطلبَ تحوَّلَ مع تطوُّرِ الأحداثِ إلى اهتمامٍ ثانوي، على أهميتِه في هذا الزمنِ الصَعْب.

وتفسيرُه: أنه بَلَغَ بِهم الإحصارُ مَبْلَغاً وجَدُوا أنفُسَهُمْ مَدْفُوعِين معَهُ إلى بابِ العزيزِ دَفْعاً.

ولقد اعتمدُوا مبدأَ التمهيدِ قَبْل الإفصاحِ عَنْ مطْلَبِهم، باستعادةِ أخيهم الأَصغر. فإذا بهم يَشْرَحُونَ واقعَ حَالِهِمْ للعزِيز.

وهذا المبدأ كثيرُ الشيوعِ والاستعمالِ في العديدِ منْ ميادِينِ الحياة: ومِنَ الأمثلة: يلجأ بعضُ الناسِ الذين عليهم دينٌ إلى لُبْسِ المسُوح، ثم الطلبِ مِنَ الدائنِ المعونة لسَدِّ الرّمَقِ، أو إطفاءِ الظمأ، عسى أنْ يرأفَ بِهم، ويُسْقِطَ عَنْهُم الدّين.

وفي واقعِ هذا المشهدِ من قِصةِ يوسفَ عليه السلام، صارَ يوسُف الخَصْمَ والحَكَمَ في آن، وصار الإخوةُ في أضعفِ موقفٍ لا يُحتسَدُونَ عليه.

اللطيفة الرابعة لُغوية: في وقوفِنا عندَ قولِهم: ﴿**وجئنا ببضاعةٍ مُزجاة**﴾. المزجاةُ في اللغة، مِنَ الإزجاء، ويعني الدَفْع قَليلاً قَليلا.

والمقصودُ في الآية، أنهم أتَوْا ببضاعةٍ ضَحْلَةٍ ضَئِيلة، بَخْسَةِ الثَمن، لا تَكَادُ تُساوِي شيئاً. .

ولنتأمّلْ غِنى اللغةِ العربية: فإنه يَكْفِي أنْ نُقَدِّمَ أو نُؤَخِّرَ حَرْفاً واحداً في كلمةٍ مُعَيّنة، حتى يَنْقَلِب المعنى إلى ضِدِّهِ تَماماً.

وحين نقولُ: بِضاعةٌ مُزْجاة: فهي البضاعةُ القليلةُ البَخْسَةُ الثمن.

وحين نقول: بِضاعَةٌ مُجْزاة: فهي البضاعةُ الكثيرةُ الغاليةُ الثمن.

فتأمَّلْ أخي المؤمن، غِنى لغةِ القرآنِ وتَذَوَّقْ.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ الإخوة، في تتمةِ الآيةِ الكريمة:

﴿فأوفِ لنَا الكيلَ وتصدّقْ علينا إنّ الله يَجْزِي المُتصدِّقين﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا من جديدٍ لهذا الترابُطِ والتماسكِ بين آياتِ القرآنِ الكريم، في المعاني والمباني.

فلقد سَمِعْنا يوسفَ عليه السلام، في الآيةِ التاسعةِ والخمسين يقول: **﴿ألا تَرَوْنَ أني أوْفي الكيلَ وأنا خيرُ المنزلين﴾**(١).

وها نحنذا نسْمَعُ صَدى قولِه، في قولِهم: فأوْفِ لنا الكيل. لقد عامَلَهمْ يوسفُ عليه السلامُ بما هو أهْلُهُ، مِنَ الكرمِ والإحسان. ولقد عَامَلُوه في السابقِ حينَ كانَ صغيراً، بالسُوءِ والإبعاد.

وها هم في ذُروةِ ضَعْفِهم، يَطْلُبونَ منه أنْ يُعامِلَهُمْ بالإحسان.

ولكنْ، شتّانَ ما بينَ إخوةِ الأمسِ وإخوةِ اليوم: فهُم اليومَ في حالٍ منَ الندمِ والاستِغْفَارِ، وقد أدْرَكُوا أنّ الله تعالى لا يَسْمَحُ بدوامِ خفاءِ الحقائق، وإنْ طَالَ أمدُ إخفائها.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٥٩]

اللطيفة الثانية: في لَحْظِنا لهذا التدرُّجِ الذي ساقَهُ الإخوةُ في الإعلامِ عن شِدةِ ضَعْفهم، وغُلُوِّ إخصَارِهم.

فكانَ ذلك على خَمْسِ مراحل:

المرحلةُ الأولى: في قولِهم: ﴿**يا أيها العزيزُ مَسَّنا وأهلَنا الضُّر**﴾. وهم بذلك يُوضِحونَ أنَّهم، وأهليهم، معَ ما تَحمِلُه صورةُ الأهلِ مِنَ النساء والأطفال، أصابَهم الضَعْفُ والوَهَن.

المرحلةُ الثانية: في قولِهم: ﴿**وجِئْنا بِبضاعةٍ مُزجَاة**﴾، وهم بذلك يُضيفُون إلى صورةِ ضَعْفِ الأشخاص، قِلَّةَ الزادِ وضآلة الموارِد، فقالوا: إن بضَاعَتَهُمْ هزيلةٌ ضئيلةٌ بَخْسَةُ الثمن.

المرحلةُ الثالثةُ: في قولِهم، ﴿**فأوْفِ لنَا الكيل**﴾، وهم بذلك يُشْرِكُونَ مع ضَعْفِهم كَرَمَه، ومعَ هوانهم تمكُّنَه.

المرحلةُ الرابعةُ: بقولِهم: ﴿**وتصدَّقْ علينا**﴾، وهم بذلكَ يدعون التلميحَ إلى التصريح، ويسَلِّمُون ويُعْلِنُونَ صراحةً أنهم في أضْعَفِ حالٍ وأهونِ مآل، وهل أضْعَفَ مِنْ قَول: ﴿**وتصَدَّقْ علينا**﴾.

المرحلةُ الخامسة بقولِهم، ﴿**إنَّ الله يَجْزِي المُتصدِّقين**﴾، وهم بذلك يقْصَدُون استدرَار عطفِ العزيزِ وإلانة قلْبِه.

وهُم لا يَعْلَمُونَ أنّ قلبَ العزيزِ في حالٍ منَ العَطْفِ واللين، ما بَعْدَهُ عطفٌ ولا لين.

اللطيفة الثالثة: في مُحاولتِنا لمعرفةِ حالِ الإخوةِ النفسية، في هذه المرحلةِ مِنْ مراحِلِ القصة:

فهم لا يكادُونَ يخرجونَ مِنْ إحصارٍ حتى يقعُوا في إحصارٍ أشدّ منه.

ولقد تركوا وراءَهم أباً محزوناً على فِراقِ ولديه الأثيرين.

ولقد كانوا في الماضي سبباً في حُزنِه الأكبر.

وهم في هذه اللحظات، يستشعِرُونَ عِظَمَ ذَنْبِهم بما فعلُوه.

فكان كلامُهم تعبيراً صادِقاً على واقِع حالِهم.

فبَلَغُوا بذلك القِمة في الصفاءِ والاعترافِ بالذنب، ولقد تبَلَّغَ يوسفُ عليه السلامُ هذا الصفاء.

وسنعرفُ في الآيةِ اللاحقة، كيفَ كان جوابُ يوسفُ عليه السلام..

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على جواز إظهار الضعف الحاصل على حقيقته دون المغالاة والكذب، لاستدرار عطف من بيده السلطة والتمكن ولقد تمنع العزة والأنفة بعض الناس من التصريح بحقيقة حالهم، فأما المتعففون فأجرهم عند الله تعالى كبير، وهو الذي يتكفل بإيصال ضعف حالهم إلى من آتاه الفضل، وإما المتكبرون المتعجرفون الذين يتعالون عن ذكر حاجتهم صلفاً وتطاولاً، فاؤلئك الذين لا يحبهم الله تعالى ولا يحبهم العباد، وعقابهم شديد عند الله تعالى، ذلك أنهم إذا ما وصلت إليهم النعمة فهم يمنعونها الناس، ويظنون إنما حصلوها على علم ودراية منهم ويجحدون فضل الله تعالى عليهم.

٢ - للدلالة على أن التأديب في حق من ارتكب خطأ مندوب، وذلك لصقل نفسه وإعادتها إلى جادة الصواب، وهذا ما حصل مع أخوة يوسف عليه السلام، فلقد احتاجوا إلى هذه المرحلة الصعبة من الإحصار والإرباك والإضعاف حتى تصفو نفوسهم وترقى إلى أعلى الدرجات.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٨]

نصِلُ معَ هاتين الآيتين، أخي المؤمن، إلى نهايةِ التأزُّمِ الذي يعيشُه إخوةُ يوسفَ عليه السلام، وكُنَّا قد رأَيْنا كَمْ بَلَغَ بِهِم الإحصارُ في الآياتِ السابقة، وقد بَلَغُوا القِمَّة في طَلَبِ العَطْفِ والتصدُّقُ مِنَ العَزيز، ويوسُف عليه السلامُ يَنْتَظِرُ مِنْهُم هذا الإقرار، لكي يُفْصِحَ عَنْ نفْسِه، ويُظْهِرَ لهُم فضْلَ الله تعالى عليه، فيستطيعوا بذلك أن يُقييمُوا فضْلَ الطّاعَةِ على هَوانِ المعصية.

يقولُ الله تعالى في الآيةِ الأُولى موضوعِ تأمُّلِنا بـ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لترابُطِ آياتِ القُرآنِ الكريم فيما بَينِها، وإنْ بَدَتْ مُتباعِدَةً في الظّاهر، فبالعَوْدَةِ إلى الآيةِ الخامسةَ عشرة من هذه السورة يقولُ الله تعالى: **﴿وأوْحَينا إليه لِتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمرِهم هذا وهُمْ لا يشْعُرون﴾**.

وإذا بنا هُنا معَ هذه الآية، نجِدُ الرَّبْطَ المُنتَظَر معَ تلكَ الآية، إذْ إنَّ يوسفَ عليه السلام، يُنَبِّؤهم بأمرِهم، وقد فَاجَأَهُمْ بهذا الإعلامِ فهم لا يشْعُرون.

اللطيفة الثانية: في لحظِنا لجمالِيَّةِ الأُسلوبِ الذي اعتَمَدَهُ يوسفَ عليه السلام في بدءِ الإعلام، وذلك بإبرازِ الاستفهامِ التقْريريّ، حَمْلاً مِنْهُ لهم على المُشارِكَةِ في كشْفِ الحقيقة. فما قالَ لهم مُباشَرة: أنا يوسفُ الذي أسأْتُمْ إليه

في الماضي، أو الذي أرَدْتُمْ قَتْلَه والتخَلُّصَ مِنه، بل تَرَكَ لهُمْ هُم، أنْ يقولُوا لهُ أنتَ يوسف.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عِنْدَ هذا الأدَبِ الجَمِّ الذي يتَحلّى بهِ يُوسفُ عليه السلام، وهو في أعلى مراكِزِ السُلْطَةِ والقُوّةِ في الأَرض، وقَدْ تمكّنَ مِمن أساءَ إليه، وجاءَ وقتُ تصفيةِ الحسابات، وله الخِياراتُ كلُّها، ولعَلّ أخفَّها وأكْثَرَها رأفة، هو التعنيف الكَلامِيّ، واللوم والعِتاب، وذِكْرُ المُعَاناةِ التي تسَبَّبُوا لهُ بها.

فماذا كانَ منه؟

لنَسْتَمِعْ إلى الآيةِ ثانيةً، ونتأمَّلْها من هذه الزاوية:

﴿قالَ هل علمتُمْ ما فعَلْتُمْ بيوسفَ وأخيه إذ أنتم جَاهِلُون﴾.

وفي هذا الكلام، مِنَ التَّلطُف، والحُنُوّ، والرأفةِ ما لا نَجدُ له نَظِيرا:

فلقد خاطَبَهُم أولاً بخطابٍ هيِّنٍ ليِّن، نَلْحَظُهُ مِنْ خلالِ الكلمات.

ثم إنه أخْفَى ما قَدْ يتَضَمَّنَهُ الكلامُ مِنْ قَسوة، كقولِنا: هل عَلِمْتُمْ ما فعَلْتُمْ بيوسفَ وأَخيه مِنْ فِعلٍ قَبيح.

ثم إنه وجَدَ لهُم العُذْرَ بقولِه لهم: **﴿إذْ أنتم جَاهِلُون﴾**، والجهلُ بالشيء هو عدمُ المعرفةِ به.

وفعلُ القبيحِ على جهلٍ بمقدارِ قُبْحه، أسهلُ مِنْ فِعْلِه على علْم.

وهُمْ حتى لَوْ سَعَوْا في إيجاد الأعذارِ لأنفُسِهم، لما استطاعُوا أنْ يَجِدُوا عُذْراً أفضَلَ ممّا أعْطَاهُم يوسفُ عليه السلام، في هذا الكلام.

وما أحْوَجَنا إلى تعلُّمِ اللّبَاقَةِ واللّياقةِ في الكلام، وتلكَ علامةٌ مِنْ علاماتِ رُقيِّ الأمم وذاك فضل الله تعالى على أنبيائه وأصفيائه.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأمُّلنا:

﴿قالُوا أإنك لأنت يوسف. قالَ أنا يوسفُ وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا إنَّه مَنْ يتّقِ ويَصْبِرْ فإنّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسنين﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لُغوية، في وقوفِنا عندَ عبارة: **﴿أإنَّك لأنْتَ﴾** ففيها استفهامٌ وتأكِيدان، وتلك نادِرَةٌ فريدةٌ في أُسلوبِ الكلام.

فالمقصودُ قولُه: أنت يوسف.

فجاءَ التوكيدُ الأول: إنكَ أنتَ يوسف.

ثم جاءَ التوكيدُ الثاني: إنَّك لأنتَ يوسف.

ثم جاءَ الاستفهام: أإنَّك لأنتَ يوسف.

اللطيفة الثانية: في استشعارنا لامتزاجِ الدهشةِ والفَرح، في رَدّةِ فِعلِ الإخوةِ على كلامِ يوسفَ عليه السلام:

فهم كما رأيْنا في أشَدِّ حَالاتِ الهَمِّ والغَمّ.

وهم يتوقّعُون مِنَ العزيزِ بعضَ الشَّفقَةِ عليهم، فيُعطيهم شيئاً من المؤن.

ويَعْلَمُونَ أنهم سيجدونَ صُعوبةً شديدةً في إقناعِ العزيزِ بِرَدِّ أخِيهم الأَصغر، ولقد رفَضَ طَلَبَهُمْ في السابق.

وفي أحسنِ الأحوال، قدْ يقْبَلُ بِرَدِّه إليهم، فيكونون بذلك قد عادُوا إلى الحالةِ السابقةِ على تتالي المِحَنِ عليهم، ولا يكونون بذلك قد حَقَّقُوا إلا الشِقّ الأبسطَ مِنْ مُهمّتهم.

وهم يتوقّعُونَ أشدّ الجُهدِ والعَنَاءِ في البحثِ عَنْ يُوسفَ عليه السلام. بعد هذه السِنينَ الطِّوال.

فإذا بهم فَجْأةً، أمَامَ كُبرياتِ الحُلولِ لكاملِ مشاكلهم وإحصارِهم، وانتهاءِ مُباغتِ لمعاناتهم، بكلمتين اثنتين من عزيز مصر، في مُفاجأةٍ أقلّ ما يُقالُ فيها، إنها أقْصَى ما كانُوا يتمنونه ولو في خيالِهم، فجاءَ قولُهم بهذه القوةِ والحُبور: ﴿أإنّكَ لأنتَ يُوسف﴾.

اللطيفة الثالثة: في مُلاحَظَتِنا لتَمَسُّك يوسفَ عليه السلام، بإدراجِ ذِكرِ أخيهِ الأصغر في النِقاش. ففي الآيةِ السابقة، قَرَنَ ذِكْرَ إساءَتِهم إليه بذِكْرِ الأخِ الأصغرِ فقال: ﴿هل عَلِمْتُم ما فعَلْتُم بيوسفَ وأخيه﴾.

وهنا في هذه الآيةِ يقول: ﴿أنا يوسف وهذا أخي﴾، علْماً بأنهم لم يسْألُوه مُباشَرةً عَنْ أخيه.

وهذه درجةٌ عاليةٌ مِنَ الحُبِّ والوفاء.

اللطيفة الرابعة: في مُتابَعتنا للأسلوبِ الدَّعَوِيِّ الذي عوَّدَنا عليه يوسفُ عليه السلام منذُ بدايةِ السورة، وقد احتجبَ بعضَ الشيء في حواراتِه، حِينَ ظهرَ بصفة عزيز مِصْر.

فنحن نَذْكُر أنه حتى حينَ كانَ في السِّجْن، كانَ داعِيَةً إلى الله تعالى، إذْ نسْمَعُه يقول: ﴿يا صاحبَيِ السجنِ أأربَابٌ مُتفرِّقُونَ خيرٌ أم الله الواحدُ القهار﴾[١].

وها نحنذا نسْمَعُه يقول: ﴿إنه مَنْ يتَّقِ ويصْبِرْ فإنَّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنين﴾.

ولقد كانَ دَقيقاً في إجابتِه، فَذَكَر أمرينِ اثنين، وأعقبُهما بصفةٍ ثالثة:

الأمرُ الأول: تقوى الله العظيم، مع كُلِّ ما تَتَضمَّنُه هذه الصفةُ مِنَ القيامِ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣٩].

بالطاعاتِ والعِبادات، والنأي عن معصية الله، واجتنابِ ما حرَّمَ الله تعالى.

الأمرُ الثاني: الصبر، مع كُلِّ ما تتَضمَّنُه هذه العبارةُ منَ الصبر على البلاء، والصَبْرِ عن المَعْصِية، والصبرِ على الطاعة، والصبرِ على تأخُّرِ الفَرَج، والصبر على قضاءِ الله تعالى، والصبر على أذى النّاس، والصبرِ على تأخُّرِ إجابةِ الدعاء إلى حين نفاذِ أمرِ الله تعالى.

أما الصفةُ، فهي صفةُ المحسنين، والإحسانُ أعلى مرتبةٍ منْ مراتبِ الإيمان، ولقد بَلَغَها يوسفُ عليه السلامُ منذُ بداية السُّورة، فقالَ عنه الله تعالى في الآيةِ الثانيةِ والعِشرين: **﴿وكذلك نَجْزِي المُحسنين﴾**. وقال له صاحِبا السِجْنِ في الآيةِ السادسةِ والثلاثين: **﴿إنّا نراك من المحسنين﴾**، ثم قال عنْهُ الله تعالى في الآية السادسةِ والخمسين: **﴿نُصيب برحمتنا مَنْ نشاء ولا نُضيعُ أجْرَ المحسنين﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب التواضع لله تعالى في كل مواقف الحياة، والتواضع مع الناس، خصوصاً حال التمكن: فنحن نفهم ونقر ببساطة تواضع المرؤوس أمام رئيسه، والعامل أمام صاحب العمل. أما أن نرى الرئيس والحاكم في حال من التواضع مع رعيته فتلك صفة زكية عالية جداً تدل على نفس زكية عالية، تم تأديبها أحسن تأديب.

٢ - للدلالة على وجوب العفو عند المقدرة، وخصوصاً حال التمكن وهذه من أصعب الأمور على النفس البشرية التي تحتاج إلى الكثير من التدريب والتهذيب والضبط حتى تتمكن من التعالي على رغباتها الدقيقة بالإقتصاص ممن أساء إليها.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٩]

نستشعرُ معاً أخي المؤمن، معَ هاتينِ الآيتين، هدوءَ وتيرةِ الأحداث، وانخفاض مستوى التأزُّمِ والتعقيد، وارتياح إخوةِ يوسفَ حين علِمُوا أنَّ كُلَّ الأزَمَات قد حُلَّتْ دُفعَةً واحدة. وأنهم في حضْرَةِ أَخيهم يوسف عليه السلام، وقد تحوَّلَ الموقفُ الآن مِنَ الدهشةِ والسرورِ إلى تأنيبِ الضَّمير، والاعترافِ بالذنب، ليكونَ هذا الاعترافُ العلنيُّ تتويج تنظيف نفوسِهم، وتطهيرها من آثارِ ذنوبِ الماضي، فيكونوا بذلك أهلاً لفضلِ الله تعالى اللاحق بهم، في تسميتهم بالأسباط، وإكرامهم بالنبوة.

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيات.

يقولَ الله تعالى في الآيةِ الأُولى، موضوعِ تأمُّلِنا: **﴿قالُوا تالله لقد آثرَكَ الله علينا وإنْ كُنّا لخَاطئين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِهم: **﴿تالله﴾**، ونلاحِظُ أنها تَرِدُ في هذه السورةِ للمرةِ الثالثة، ولن تكونَ الأخيرة، ونُلاحِظُ أنها تردُ في الجُزءِ الأخيرِ مِنَ السورة، مباشرةً، بعدَ حادِثَةِ ضياع الصُّواع. وبالتتبُّع نَجِدُ:

أنها ورَدَتْ للمرةِ الأُولى في الآيةِ الثالثةِ والسبعين، مع قولِ الإخوة: **﴿قالوا تالله لقد عَلِمْتَ ما جِئْنا لنُفسِدَ في الأرضِ وما كُنّا سارِقين﴾**.

ثم إنها ورَدت للمرةِ الثانيةِ في الآيةِ الخامسةِ والثمانين، معَ قولِ الإخوة:

﴿قالوا تالله تفتؤا تذكرُ يوسفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكونَ من الهَالِكين﴾.

ثم إنها ورَدَتْ للمرةِ الثالثة، مع الآيةِ موضوعِ تأمُّلِنا على لسانِ الإخوةِ أيضاً: **﴿قالوا تالله لقد آثَرَك الله علينا وإنْ كُنَّا لخَاطِئين﴾**.

ثم إنها ستَرِدُ في المرةِ الرابعةِ على لسانِ أهلِ يعقوبَ عليه السلام، المحيطين به، من غيرِ الإخوة، في الآيةِ الخامسةِ والتسعينَ بقولِهم: **﴿قالُوا تالله إنّك لفي ضَلالِك القديم﴾**.

ونَرَى أَنها في كُلِّ مرةٍ تصْدُرُ إمّا للإعرابِ عن عدمِ العِلْم، أو الاعترافِ بالذنب، وفي كلِّ الأحوال. فهي تعبيرٌ عنْ خضوعِ لله تعالى، وهذا لا يصْدُرُ إلا عَنْ قَلْبِ مؤمنٍ بالله، وتلك هي حالُ آلِ يعقوبَ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: في الإيجازِ الجميلِ الذي ساقَه الإخوةُ بقولِهم: **﴿لقد آثَرَك الله علينا﴾**.

ولسانُ حالِهم يقول: لقد آثَرَكَ الله علينا بالعِلمِ والحِلْمِ والعقْلِ والفضْلِ والصبرِ، والحُسنِ والإحسانِ والمُلْك.

إمّا العلم: فلقد علَّمَه الله تعالى من تأويلِ الأحاديث، ولم نسْمَعْ أنهم بلغُوا في تأويلِ الأحاديثِ علْماً.

أما الحِلْم، فلقد أعطاهُ الله تعالى مِنْ سعةِ الحِلْم، ما جعَلَهُ يضْبِطُ نفْسَهُ حينَ اتّهَمُوهُ بالسَرِقةِ أمامَه، وهم يظُنُّونَ أنه غائب، فلم يُجِبْهُم علناً.

أمَّا العقْل، فلقد وَهَبَهُ الله تعالى مِنَ العقلِ ما مَكَّنه منْ حبكِ مسائل الإرباكِ بدقةٍ مُتناهية، دونَ أنْ يشْعُرُوا بشيء منها.

أما الفضل، فلقد حبَاهُ الله تعالى بنِعْمَةِ الإكرام، حتى لمنْ أَساءَ إليه، وأراد له الموت، أو الإبعاد.

أمّا الصَبر، فلقد صَبَرَ على أذاهُمُ السنينَ الطِّوال، وثابَر على صَبْرِه عليهم، حتى بعدَ أن التقاهُم، وهو في عِزَّةٍ ومنعة.

أمّا الحُسْن، فهذا الذي مَنْ أجلِه أساؤوا إليه وأبعدُوه عَنْ أبيه.

أمّا الإحسان، فلقد أجْزَل لهُم الكيْل، وأراهُم من آياتِه في الكَرَمِ والضِّيافةِ الشيءَ الكثير.

وأمّا المُلْك، فلقد رأَوْا عليه أُبَّهة الحُكْم، ومَهابَة السُلْطة، وقد تَبَوَّأ أعْلَى منصبٍ في الدنيا في زمانِه.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ قوْلهم: **﴿وإنْ كُنّا لخاطئين﴾**.

وفي هذا تثبيتُ الاعترافِ بالذَّنب. حتى تكونَ المغفرةُ في أعْلَى مَدارِكها. ولقد كانُوا على دَرَجةٍ عاليةٍ جِدّاً، مِنْ نَقْدِ الذات، فهم لم يلتَمِسُوا لأنفُسِهِم الأعذارَ فيما فَعَلُوا، بل إنّ يُوسفَ عليه السلامُ التَمَس لهُم العُذْرَ في الآية السابقةِ بقوله: **﴿إذْ أنتم جاهِلُون﴾**، فإذا بهم يُؤَكِّدونَ أنهم كانوا خاطئين، وهم يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله تعالى، ويَعْلَمُونَ أنّ إساءَتَهُمْ لم تَكُنْ بالإساءةِ العادِيّة:

فهُمْ أساؤُوا إلى نبيٍّ مِنْ أنبياءِ الله تعالى، بل إلى نبيين.

وكان أثرُ الإساءةِ ممتداً على سنواتٍ طويلة. وكان يُمْكِنُ في حقِّهم أنْ تكونَ دائمة.

ولقد أساؤُوا قانعينَ مُخْتَارِين، عَنْ سابقِ تصوُّرٍ وتصميم. لهذا جاءَتِ العبارةُ واضحةً صرِيحة: **﴿وإنْ كُنا لخَاطِئين﴾**.

ولقد توقَّف أهلُ اللغةِ العربيةِ عِنْدَ قولِهم، وأشارُوا بتفصيلِ اللغةِ ما بينَ الخَاطِىء والمُخطِىء.

فالخاطىء هو الذي أقر بالخطيئة عَمْداً، وهذا حالُ إخوةِ يوسفَ عليه السلام.

والمُخْطِىء هو الذي يَجْتَهِدُ عَنْ حُسنِ نيةٍ، فلا يُصيب.

فانظُر أخي المؤمن، إلى جَمالِ اللغةِ العربيةِ ودقّتِها..

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانيةِ موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿قال لا تَثْريبَ عليكُمْ اليومَ يغفِرُ الله لكُمْ وهو أرحمُ الراحمين﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في جماليّةِ الاستعارةِ التي ساقَها يوسُف عليه السلامُ بقولِه: **﴿لا تثريب﴾**.

فالتثريب هو إزالةُ الثَّرْب، أي الشحمِ الذي يُغطّي البَطْنَ. ويُقالُ تثريب، إستعارةً، لحال اللوم الذي يمزق الأعراض ويُذْهب بهاءَ الوَجْه، لأنه بإزالةِ الشحمِ يَبْدو الهُزَال. وكذلك باللوم تَظْهَرُ العيوبُ فقال: **﴿لا تَثريب عليكُم اليوم﴾**، أي لا توْبيخَ عليكُم اليوم.

ولقد استَعْمَل رسولُ الله ﷺ العِبارةَ ذَاتَها، يومَ فَتْحِ مكّة، وقد اجتمعَ الناسُ حوْلَه ينْظُرون ماذا يَفْعل بهم إذْ قال: وأنا أقولُ كما قالَ أخي يوسف؛ لا تثريبَ عليكُم اليوم.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِه، **﴿يَغفِرُ الله لكم﴾**.

وهو استقبالٌ بمعنى الدعاء. أي أدْعُو الله تعالى أنْ يَغْفِرَ لكم.

وهو بهذا يُعَبِّرُ عنِ التَّنَازُلِ عنْ حقِّه الشخصي، بطلب الاقتصاص منهم، وهو يَعْفُو عنهم، ويَطْلُبُ مِنَ الله تعالى أنْ يَعْفُوَ عنهم.

وهذا ما تعَارَفَ عليه النّاسُ في أَيامِنا الحاضِرة، بحقوقِ العبادِ فيما بينَهم، وحقِّ الله تعالى على العِباد.

اللطيفة الثالثة: فيما أعطى يوسفُ عليه السلامُ إخوتَه من إشاراتٍ إيجابيةٍ فيما قالَه لهُم، إذْ قال في آخرِ الآية، **﴿وهو أرْحَمُ الراحمين﴾**.

ولقد يظُنُّ البعضُ أنَّ في الآيةِ تأكيدَ حُصولِ المغفرةِ، حينَ يَعْمدونَ إلى تعليق كلمةِ اليوم، بعبارةِ: ﴿**يغفرُ الله لكم**﴾.

وكأنّهم يقرؤون: قال لا تتريبَ عليكُم - ثم وقْف - اليومَ يغفرُ الله لكم.

وما هذا ما أشارتْ إليه الآية، بدليلِ أنهم بعدَ هذا الموقف. سيكونُ لهم موقفٌ آخرُ مع أبيهم يعقوبَ عليه السلام، يطْلُبُونَ منه أنْ يَدْعُوَ الله تعالى لهم بالمغفرة، في قولِهم في الآيةِ السابعةِ والتسعين: ﴿**قالوا يا أَبانا استغْفِرْ لنا ذُنوبَنا إنّا كُنّا خاطئين**﴾. وقولِه لهم في الآيةِ الثامنةِ والتسعين: ﴿**قالَ سوفَ أستغفرُ لكم ربي إنه هو الغفورُ الرحيم**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مبلغ السعادة التي يصل إليها الإنسان حين يقر ويعترف بذنبه، وكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون والتوبة تقتضي شروطاً وعناصر: فأول شروطها الإعتراف بالذنب ثم العزم على عدم العودة إليه، ثم العزم على التكفير عما بدر منه، ثم السعي لإزالة الضرر الواقع على الآخرين جراء تصرفه، ثم استسماحهم، ثم حض الآخرين على عدم الوقوع فيما وقع فيه هو.

٢ - للدلالة على أن الله تعالى قريب من عباده، سميع مجيب الدعاء يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ولا يظن إنسان تفاقمت ذنوبه وتراكمت سيئاته أنه بعيد من الله تعالى، وأنه لن يُغفر له، وإن تكن وسوسة الشيطان له لصيقة بهذا المعنى، فعليه أن يعلم أن الله تعالى يغفر الذنب ويقبل التوبة عن عباده، وهذه فرصة سانحة نادرة لا يعلم متى يقفل بابها، وذاك بالموت، الغائب المنتظر، فليسارع إلى التوبة وطلب المغفرة، والله تعالى هو الغفور الرحيم.